الباب الثَّالث
صفات المحاور

- حُسْنُ الخُلُقِ
- الصَّبْرُ
- بَسْطُ الوَجْهِ
- التَّوَاضُعِ .
- الرَّحْمَةُ بالخَصْمِ .
- الهُدُوءُ .
- الصِّدْقُ .
- الإنْصاف .
- الرِّفْقُ .
- الحِلْمُ .
- الأنَاةُ .
- التَّغابي .
- المُداراةُ .
- الابتعادُ عَن المُداهَنَةِ .
- الابتعاد عَن الخَجَلِ .

حُسْنُ الخُلُقِ

أي أخي ، إنَّ حُسْنَ الخُلُق من أسبابِ نجاح أيِّ حوارٍ ، والوصولِ إلى ثمراته بأيسرِ الطُّرُقِ ؛ فبه يتمكَّن المحاور من إبداء حُجَّتِه ، وفَهْم حُجَّة صاحبه ، وهو - مع ذلك - عبادةٌ عظيمةٌ ، أمر به ربُّ العزَّة والجلال ، ورتَّبَ عليه الجزاء العظيم .

فعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ العبدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائِمِ القائمِ »[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ ، قال : « تَقْوَى الله ، وحُسْنُ الخُلُق »[(٢)] .

والأخلاقُ - كما قال الغزاليُّ - على ضَرْبَيْنِ : فمنها ما هو غريزيٌّ جبليٌّ ، ومنها ما هو اكتسابيٌّ يأتي بالدربة والممارسة والرِّياضة والمجاهدة ، ولو كانت الأخلاق لا تتغيَّرُ لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات[(٣)] .

فالأخلاقُ قابلةٌ للتَّغيير ؛ وذلك أنَّ الحِلْمَ من الأخلاق ، بل هو سيِّدُها ، وهو - مع ذلك - يُنالُ ويُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم والمجاهدة ، وحمل النَّفس على ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « إنَّما العلْمُ بالتَّعلُّم ، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحلُّم ، ومَنْ يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ ، ومَن يَتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ »[(٤)] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ١٦٢٠)، والصَّحيحة (٧٩٥).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح سُنن التِّرمذيِّ (١٦٣٠) .

(٣) « الإحياء » (٣/ ٥٥) .

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (٩/ ١٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والطَّبرانيُّ في الكبير (٣٩٠٠٩) عن معاوية رضي الله عنه ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ٢٣٢٨) ، والصحيحة (٣٤٢) .

قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ إنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ وما الحِلْمُ إلاَّ عادةٌ وتَحَلُّمُ (١)

وثمة أسبابٌ تعينُ على حُسْنِ الخُلُقِ ، اذكرْ بعضاً منها :

[١] سلامة العقيدة :

إذا صَحَّتْ عقيدةُ المحاور ، زكتْ نَفْسُهُ ، واستقامتْ أخلاقُهُ .

قال الغزاليُّ - رحمه الله - : « آدابُ الظَّواهر عُنْوانُ آدابِ البَواطن ، وحركاتُ الجوارحِ ثمراتُ الخَوَاطر ، والأعمال نتيجة الأخلاقِ » (٢) .

[٢] الدُّعاء :

فقد كان النَّبيُّ ﷺ كثيرُ الضَّراعة إلى ربِّه أن يرزقَهُ حُسْنَ الخُلُقِ ، وكان يقول في دعاء الاستفتاح : « اللَّهُمَّ اهدني لأحسنِ الأخْلاقِ ، لا يهدي لأَحْسَنِهَا إلاَّ أَنْتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها ، لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلاَّ أنتَ » (٣) .

[٣] المجاهدة :

وذلك لأنَّ حُسْنَ الخُلُقِ نوعٌ من الهداية يحصلُ بالمجاهدة ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والَّذين جاهَدُوا فينا لنهدينَّهم سُبلنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

[٤] المحاسبة :

قال ابن المُقَفَّع : « ليَحْسُنْ تعاهُدُكَ نَفْسَكَ بما تكونُ به للخيرِ أهلاً ؛ فإنَّك إنْ فعلْتَ ذلك ، أتاك الخيرُ يطلبُكَ ، كما يطلبُ الماءُ السَّيْلَ إلى الحُدُورَةِ (٤) » (٥) .

---

(١) « أقوال مأثورة » (ص ٤٤٠) .

(٢) « الإحياء » (٢/ ٣٥٧) .

(٣) أخرجه مسلمٌ (٧٧١) عن عليٍّ رضي الله عنه .

(٤) الحُدُورة : المكان المنحدر .

(٥) « الأدب الصغير والكبير » (ص ١٠) .

أخي الحبيب ، لا تيأسْ من إصلاحِ نفسِكَ ؛ فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا ،وما مِنْ داءٍ إلاَّ وله دواءٌ .

قال ابنُ المقفَّع :« وعلى العاقلِ أنْ يُحْصيَ على نفسِه مساوئها في الدِّينِ ، وفي الأخْلاقِ وفي الآدابِ، فيجمعُ ذلك كلَّهُ في صدرِه أو في كتابٍ، ثُمَّ يُكثر عرضه على نفسه ، ويُكَلِّفها إصلاحها ، ويُوظِّف ذلك عليها توظيفًا من إصْلاحِ الخلَّة أو الخلَّتين في اليوم ، أو في الجمعةِ ، أو الشَّهْرِ ، فكُلَّما أصْلَحَ شيئًا مَحَاهُ، وكُلَّما نَظَرَ إلى مَحْوٍ استبشَرَ ، وكُلَّما نَظَرَ إلى ثابتٍ اكتأبَ »[1] .

وقالَ ابنُ حزْم - رحمه الله - متحدثًا عن تجربته مع نفسه ، وعن محاولته في التخلص من عيوبه ، وعن النتائج التي حصلَ عليها من جراء ذلك :« كانتْ فيَّ عُيُوبٌ فلم أزَلْ بالرياضَةِ واطِّلاعي على ما قالت الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم ، والأفاضل من الحكماءِ المتأخِّرين والمتقدِّمين في الأخلاقِ ، وآداب النَّفسِ أُعاني مداواتها ، حتَّى أعان الله عزَّ وجلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنِّه .

وتمامُ العَدْلِ ، ورياضَةُ النَّفْسِ ، والتَّصرُّف بالأمور هو الإقرار بها ؛ ليتَّعظ بذلك مُتَّعظٌ يومًا إنْ شَاءَ الله ، فمنها[2] كلفٌ في الرِّضى ، وإفراطٌ في الغَضَبِ ، فلم أزَلْ أُداوي ذلك ، حتَّى وقفتُ عند تركِ إظهارِ الغَضَبِ جملةً بالكلامِ ، والفعل ، والتَّخبُّط ، وامتنعتُ ممَّا لا يحلُّ من الانتصار ، وتحمَّلْتُ كم ذلك ثقلاً شديدًا ، وصَبَرْتُ عَلَى مَضَضٍ[3] مُؤْلِمٍ ، كان رُبَّما أمرضَني ، وأعجزَني ذلك في الرِّضى ، وكأنِّي سامحْتُ نفسي ؛ لأنَّها تمثَّلَتْ أنَّ تركَ ذلك لُؤْمٌ .

---

(١) المرجع السَّابق (ص٥٤) .

(٢) يعني عيوبه .

(٣) **المَضض** : وجع المصيبة .

ومنها دُعابةٌ غالبةٌ ، فالذي قَدرْتُ عليه منها إمساكي عمَّا يُغْضِب المُمَازَح ، حتُ نفسي فيها ؛ إذ رأيتُ أنَّ تركها من الانغلاق ، ومُضاهٍ للكبرِ .

ومنها عُجْبٌ شديدٌ ، فناظر عَقْلي نفسي بما يعرفه من عُيوبها ، حتَّى ذَهَبَ كُلُّهُ ، ولم يَبْقَ به - والحمدُ لله - أثَرٌ ، بلْ كَلَّفْتُ نفسي احتقارَ قَدْرِهَا له ، واستعمال التَّواضُعِ .

ومنها حركاتٌ كانت تولِّدُها غرارةُ الصِّبا [١] ، وضعفٌ في الإغْضَاءِ ، سرتُ نفسي على تركها فذهبتْ .

ومنها محبَّةٌ في بُعْدِ الصِّيتِ [٢] والغلبة ، فالَّذي وقفتُ عليه في مُعاناة هذا اء الإمساكُ فيه عمَّا لا يحلُّ في الدِّيانَةِ ، والله المستعان على الباقي » [٣] .

وأخيرًا قال الشاعر :

ما حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ المَرْءُ نَفْسَهُ ولكنَّ أَخْلاقًا تُذَمُّ وتُمْدَحُ

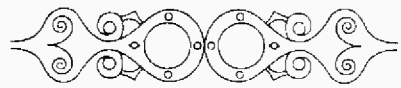

(١) **الصِّبا** : الفُتُوَّة والشباب .

(٢) **الصِّيت** : الذكر الجميل .

(٣) « **الأخلاق والسِّيَر** » (ص٣٣-٣٤)

الصَّبْر

لا شكَّ أنَّ الصبرَ من أعْظَمِ صفاتِ المُحاورِ ، بل الأساسِ الذي يقومُ عليه أيُّ حوارٍ ، فمتى تَجَرَّعْتَ من محاورك الغُصَصَ ، وقابلْتَ ذلك بالابتسامةِ وحُسْنِ الأدَبِ ، فقَدْ ارتَشَفْتَ النَّصْرَ العزيز ، وفُزْتَ بالظَّفَرِ الحميد ، واكتَسَبتَ الذِّكْرَ الجَميل .

قال الشاعر :

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمْرٍ يُطَالِبُهُ ... واستَصْحَبَ الصَّبْرَ إلاَّ فازَ بالظَّفَرِ

ونظرًا لأهميَّةِ الصَّبْر فقَدْ جَعَلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإمامةَ في الدِّين موروثةً عن الصَّبْرِ واليقين ؛ قال الله تباركَ وتعالى : ﴿ وجعلْنا منهُمْ أئمَّةً يَهْدُون بأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآياتنا يُوقِنُون (٢٤) ﴾ [السَّجْدَة : ٢٤] .

وذكرَ اللهُ ربُّ العزَّةِ والجلالِ الصَّبْرَ في القرآن الكريم في نَيِّفٍ [١] وتسعين موضعًا ، وأضاف أكثرَ الدَّرجات والخيرات إلى الصَّبرِ ، وجعلها ثمرةً له ، وجمع للصَّابرين بين أمورٍ لم يجمعها لغيرهم ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ .

[البقرة : ١٥٧] [٢] .

وقَرَنه بالصَّلاة في قوله تبارك وتعالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ .

[البقرة : ١٥٣] [٣] .

---

(١) **النَّيِّف** : من الواحد إلى التِّسعة ، ونَيَّفَ بمعنى زادَ .

(٢) انظر « عدَّة الصَّابرين » (ص٩٨) .

(٣) انظر « الفتاوى » (١٠/٩) .

وبشَّرنا نبيُّنا ﷺ بقوله : « ما يُصيبُ المسلمَ منْ نَصَب [١] ، ولا وَصَب [٢] ، ولا هَمٍّ ، ولا حَزَن ، ولا أذىً ، ولا غَمٍّ - حتَّى الشَّوكَةِ يُشَاكُها - إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بها منْ خَطَاياهُ » [٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » [٤] .

وأصلُ كلمة الصَّبر : هو المنع والحبس ، **فالصَّبْرُ** : حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ ، واللِّسَانِ عن التَّشكِّي ، والجوارحِ عن لطمِ الخُدُودِ ، وشقِّ الثِّيابِ ، ونحوها [٥] .

وحقيقة الصَّبر : خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفْسِ ، يُمْتنع به عن فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ ، وهو قوَّةٌ مِنْ قوى النَّفْسِ التي بها صلاح شأنها ، وقوام أمرها ، وحين سُئل الجُنَيْد عن الصَّبْر قال : تَجَرُّعُ المرارةِ من غَيْرِ تَعَبُّسٍ » .

وقيل : « الصَّبْرُ : هو الوقوف مع البلاءِ بحسنِ الأدبِ » [٦] .

والمصائبُ تتفاوتُ ، ولكن أعظمها المصيبة في الدِّين ، فهي أعْظَمُ مصائب الدُّنيا والآخرة ، وهي نهاية الخُسْران الَّذي لا رِبْحَ معه ، والحِرْمان الَّذي لا طَمَعَ معه » [٧]

قال الشاعر :

إِذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ دِينَهُ ... فَمَا فَاتَهُ منها فَلَيْسَ بضائرِ

---

(١) **النَّصَبُ** : الوجَعُ والتَّعَبُ .
(٢) **الوَصَبُ** : المرض .
(٣) أخرجه البخاريُّ - واللَّفظُ له - (٥٦٤١) و(٥٦٤٢) ، ومسلمٌ (٢٥٧٣) عن أبي سعيدٍ وأبي هريرة.
(٤) أخْرَجَهُ البخاريُّ (٥٦٤٥) .
(٥) « عدَّة الصَّابرين » (ص٢٧) .
(٦) المرجع السَّابق (ص٢٩) .
(٧) « تسلية أهل المصائب » (ص٢٤) .

فعلى المُحاور أنْ يَصْبِر على مُحاوره ، وإنْ كان ما يسمعه منه شبهَ الوساوس، فلا يَشُقّ عليه ، ولا يَعُدَّ ذلك حِمْلاً ثقيلاً ، بل يُهَوِّن من ذلك ؛ فإنَّ عَوَاقبَ الصَّبْر أحْلَى من جَنْي الشَّهْد [١] في الفمِّ .

ولقد أجادَ مَنْ قال - وأحسَنَ - :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِه ، مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لكن عَوَاقِبُهُ أحْلَى مِنَ العَسَلِ

فيا أخي إيَّاكَ أنْ تُقابلْ السَّيِّئَة بمثلها ، فربَّما كان مَنْ تُحاوره اليومَ - في سابقِ علمِ الله - خيرًا منك غدًا ، ولِكُلِّ أجلٍ كتابٌ ، وإيَّاكَ أنْ تُسْمِعَهُ كلمةً يَحْفَظْها عنك ، حتَّى إذا اختمرتْ الفكرةُ في رأسه ، وأذن اللهُ له بالهداية ، فثابَ إلى رُشْدِه ، ورَجَعَ إلى صوابِه ، وقفَ الشَّيْطانُ في طريقه ، وقال له : اذكرْ تلك الكلمة ، فتكون أنتَ فتنةً له ، لكن إنْ تلطَّفْتَ معه بالجواب ، ولِنْتَ له في الخطاب ، فاتركه وإنْ لمْ يُوافقك ، فهو - مع مرورِ الزَّمان ، وتَخَمُّرِ الفكرةَ في رأسِه ، وحُسْنِ تعاهُدك له - سوفَ يعود إليك ، هذا حكمُ الله ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ (٣٤) وما يُلقَّاها إلاَّ الذين صبروا وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيمٍ (٣٥) ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤ ، ٣٥] .

واعلمْ أخي أنَّ من حُسْنِ تَوفيق الله لك الصَّبْرَ على مَنْ تُحاورهُ من الإخوان فكُنْ - يا حفظك الله - كما قال الشَّاعرُ :

تَنَكَّرَ لِي دَهْرِي ، ولَمْ يَدْرِ أَنَّنِي ... أَعَزُّ ، وأَحْدَاثُ الزَّمانِ تَهُونُ

وَظَلَّ يُرِيني الدَّهْرُ كَيْفَ اغْتِرَارُهُ ... وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ [٢]

---

(١) **الشَّهْد - بضم الشين وفتحها -** : عَسَل النَّحْلِ الَّذي لم يُعْصَرْ من شَمْعِهِ بَعْدُ .

(٢) « البداية والنهاية » (١١/ ١٦٠) .

أو كما قال الآخر:

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجَزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي ... وَأَصْبِرُ حَتَّى يحكمَ اللهُ في أَمْرِي
وَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّني ... صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبرِ[1]

(١) الصَّبر: عُصَارَةُ شَجَرٍ مُرٌّ.

بَسْطُ الوَجْهِ

أي أخي، إنَّ من أخلاق الرَّجُل النَّبيل ذي المروءة والأدب والتَّوَدُّد والتَّلَطُّف وبَسْطُ الوَجْهِ لمن يُحاوره ، فانتبهْ لهذا الأمر ؛ فهو غايةٌ في نُبْلِ النَّفسِ ، وصفاءِ المَعْدَنِ .

قال حبيبُك رسول الله ﷺ : « لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أنْ تُكَلِّمَ أخاك ووَجْهُكَ إليه مُنْبَسِطٌ » (١) .

وقال حبيب بن أبي ثابت - رحمه الله - : « من حُسْنِ خُلُقِ الرَّجُلِ أنْ يُحَدِّثَ صاحبَهُ وهو يتبسَّمُ » (٢) .

والمحاور العاقل هو الذي يُقْبِلُ على مُحاوره بوجهٍ باشٍّ طَلْقٍ ، يذوبُ رِقَّةً وخُلُقًا ، ومن كانت هذه صفاتَهُ كان على التَّفكير ، واختيار الكلمة المناسبة لمقتضى الحال ، وينظر لصاحبه بشيءٍ من الثِّقَةِ ، وليس مبالغًا مَنْ قال : إنَّ الغضاضة ، والغِلْظَة ، والاكفهرار ، والعُبُوس ، والإشاحة ، والصُّدود من أخلاقِ جُفاة الأعرابِ ، وجنود التَّتار .

ولقد أجادَ مَنْ قال - وأحسنَ - :

أَخُو البِشْرِ محبوبٌ عَلَى حُسْنِ بِشْرِهِ ... وَلَنْ يَعْدَمَ البَغْضَاءَ مَنْ كَانَ عَابِسا(٣)

والعبوس وما يستصحبه من كآبةٍ واضطرابِ نفسٍ دليلٌ على صِغَرِ النَّفْسِ ، أمَّا النفوس الكبيرة فيكتنفُها جوُّ السَّكينةِ والطُّمأنينة (٤) .

---

(١) أخْرجه أبو داود (٨٤ - ٤) وأحمد (٥/ ٦٣) عن جابر بن سُلَيْم ، ومسلمٌ عن أبي ذرٍّ بلفظ : « ولو أنْ تَلْقَى أخَاكَ بوَجْه طَلْق » .

(٢) « روضة العقلاء » (ص٧٧) .

(٣) المرجع السَّابق (ص٧٥) .

(٤) « أقوال مأثورة » (ص١٨١) .

قيل لحكيم : « مَنْ أَضْيَقُ النَّاسِ طريقًا ، وأقلُّهم صديقًا ؟ » قال : « مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ بعُبُوسِ وَجْهٍ ، واستطال عليهم بنفسه » (١) .

فكمْ من النَّاسِ مَنْ لا تراه إلاَّ عابسَ الوَجْهِ ، مقطبَ الجبينِ ، لا يعرفُ التَّبسُّمِ واللَّباقة ، ولا يُوفَّق للبِشْرِ والطَّلاقة ، بلْ إنَّه ينظرُ للنَّاسِ شزرًا ، ويَرْمُقُهم (٢) غيظًا وحنقًا ، لا لذنب ارتكبوه ، ولا لخطإ فعلوه ، وإنَّما هكذا يُوحي إليه طَبْعُهُ ، وتدعوه إليه نَفْسُهُ ، وهذا الخُلُق مركَّبٌ من الكِبْرِ ، وغلظِ الطَّبْعِ ؛ فإنَّ قلَّةَ البشاشة استهانةٌ بالنَّاسِ ، والاستهانة بالنَّاسِ تكونُ من الإعجاب والكِبْرِ ، وقلَّةُ التَّبسُّمِ - ولا سيَّما عند الحوارِ - تكونُ من غلظِ الطَّبْعِ ، وهذا الخُلُقِ مُستقبَحٌ وخاصَّة بالرُّؤَسَاءِ والأفاضل (٣) .

قال الشاعر :

البِشْرُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ ... صِدْقَ المَوَدَّةِ والمَحَبَّهْ

والتِّيهُ (٤) يَسْتَدْعي لصَـ ... ـبَّهُ المَذَمَّةَ والمَسَبَّهْ (٥)

والمحاور الحكيم يُقْبِلُ على مُحاوره - ولا سيَّما إذا كانَ سُنِّيًا مُنْصِفًا عدلاً - بوجْهٍ طَلْقٍ لإدْخالِ السُّرور عليه ، واستلال ما في قلبه من تعكيرٍ ، وتحويلُ دَفَّةِ الحديث لصالحِ الحقِّ ، سواءً أظهره الله على يديه ، أم على يد مَنْ يُحاوره .

قال ابن عَقيلٍ الحنبليُّ - رحمه الله - : « البِشْرُ مُؤْنِسٌ للعُقُولِ ، ومن دواعي القَبُولِ ، والعُبُوسِ ضِدُّهُ » (٦) .

---

(١) المرجع السَّابق (ص١٧٨) .

(٢) **يرمقهم** : ينظر إليهم .

(٣) انظر « تهذيب الأخلاق » (ص٣٢) .

(٤) **التِّيه** : الكبرياء .

(٥) « عين الأدب والسياسة » (ص١٥٣) .

(٦) « الفنون » (٢/ ٦٣٥).

وقال ابن حبان - رحمه الله - : « البَشَاشَةُ إدامُ العلماءِ ، وسجيَّةُ [١] الحكماءِ ؛ لأنَّ البِشْرَ يُطْفِئُ نَارَ المُعانَدَةِ، ويُحْرِقُ هيجانَ المباغَضَةِ، وفيه تَحْصينٌ من الباغي، ومنجَاةٌ من السَّاعي [٢] » [٣] .

قال الشاعر:

الْقَ بالبِشْرِ مَنْ لَقِيتَ منَ النَّا ... سِ جَميعًا ، ولاقِهِمْ بالطَّلاقهْ
تَجْنِ مِنْهُمْ جَنَى ثمارٍ ، فَخُذْهَا ... طيِّبًا طَعْمُهُ ، لَذِيذَ المَذَاقهْ [٤]

وقال أبو جعفر المنصور - رحمه الله - : « إنْ أَحْبَبْتَ أنْ يكْثُرَ الثَّناءُ الجميلُ عليك مِنَ النَّاسِ بغيرِ نائلٍ [٥] ، فالْقَهُمْ بِبِشْرٍ حَسَنٍ » [٦] .

وقال محمد بن حازم:

وما اكْتَسَبَ المحامِدَ طَالِبُوها ... بِمِثْلِ البِشْرِ والوَجْهِ الطَّليقِ [٧]

وكانت العربُ تمدحُ طلقَ الوَجْه ، وتجْعَله دليلاً على سِعَةِ الصَّدْرِ ، وجَوْدَةِ الكَفِّ ، وسخاوَةِ الطَّبْعِ ، وكَرَمِ السَّجايا ، ونداوَةِ الخاطِرِ .

قال أحدهم:

ضَحُوكُ السِّنِّ يَطْرَبُ للعَطَايَا ... وَيَفْرَحُ إنْ تَعَرَّضَ للسُّؤَالِ

وقال عُرْوَة - رحمه الله - : « أُخْبِرْتُ أنَّهُ مكتوبٌ في الحِكْمَةِ : يا بُنَيَّ ، لِيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطًا ، ولْتَكُنْ كلمتُكَ طَيِّبَةً ، تَكُنْ أحبَّ إلى النَّاسِ من أنْ

---

(١) **السَّجيَّة** : الخُلُقُ والطبيعة ، والجمع : سجَايا .
(٢) **السَّاعي** : الذي يسعَى بالوقيعة ؛ ليُفرِّق بين الأحبَّة .
(٣) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٧٦) .
(٥) **النَّائل** : العطيَّة .
(٦) « عيون الأدب » (ص١٥٤) .
(٧) « بهجة المجالس » (٢/ ٦٦٥) .

تُعْطِيَهُمُ العَطَاءَ » (١) .

وقال ابنُ حبان : « مَنْ بَشَّ للنَّاسِ وَجْهًا لم يكُنْ عندهم بدون الباذِلِ لهم ما يملُكُ » (٢) .

وقال أبو الطيِّب المتنبِّي :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحالُ

والبشَاشَةُ عطرُ الأخْلاقِ ، ونفْحَةٌ من نفحاتِه ، لا تُكَلِّفُكَ جهدًا ولا مالاً ، فهي أقلُّ كلفَةً ، وأيسَرُ مؤنةً ، وأعظمُ أجْرًا .

قيل للعتابيِّ : « إنَّكَ تَلْقَى النَّاسَ كُلَّهم بالبِشْرِ ؟! » قال : « دَفْعُ ضغينَةٍ بأيْسَرِ مؤنةٍ ، واكتسابُ إخوانٍ بأيْسَرِ مبذولٍ » (٣) .

وقيل لأحَدِ السَّلَفِ : « ما أبَشَّكَ ! » ، قال : « إنَّه يُقَوَّمُ (٤) عليَّ برخيصٍ (٥) » (٦) .

وقال أبو حنيفةَ لأصحابِه : « إذا ناظرتم فأظهروا الضَّحك ، يقضِ عليكم الجمهور بالغَلَبَةِ » (٧) .

ومن عجائبِ ما جاءَ في ترجمةِ عبد الله بن قدامَةَ أنَّه كان لا يُناظرُ أحدًا إلاَّ وهو يتبسَّمُ ، حتَّى قال بعضُ النَّاسِ : « هذا الشَّيْخُ يقتُلُ خَصْمَهُ بتبسُّمِه » (٨) .

---

(١) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .

(٢) المرجع السابق (ص٧٥) .

(٣) « بهجة المجالس » (٢/ ٦٦٥) .

(٤) قَوَّمَ الشَّيْءَ : قَدَّرَ ثَمَنَه .

(٥) يقول : إنَّ البشاشةَ رخيصةٌ ، لا تُكَلِّفُهُ مالاً ولا جُهْدًا ، وإنَّها غالية وقيمة ؛ لأنَّها تجذب القلوب ، وتقتلع أسباب البغضاء .

(٦) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .

(٧) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقيِّ (١/ ١٩٨) .

(٨) « الذَّيل على طبقات الحنابلة » (٢/ ١٣٧) .

قال القاضي التنوخي:

الْقَ العَـــدوَّ بوَجْـــهٍ لا قُـطُوبَ بِهِ ... يكَادُ يقـطُرُ منْ مـاءِ البَـشَـاشَـات

فَـأحْـــزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَـى أعَـادِيهِ ... في جِسْمِ حِقْـدٍ وَثَوْبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ[1]

فكن أخي المحاور كما قال الشاعر:

فَـتَىً مِـــثْلُ صَنْوِ الماءِ أمَّـــا لقَـاؤُهُ ... فَـبِـشْـرٌ وأمَّـا وَعْـــدُهُ فَـجَـمِـيلُ

يَسُـرُّكَ مُـفْـتَـــراً ويُشْـرِقُ وَجْـهُـهُ ... إذَا اعْـتَلَّ مَذْمـومُ الفَعَـالِ[2] بَخِيلُ

عَـيِيٌّ عَنِ الفَـحْـــشَـاءِ أمَّـا لِسـانُهُ ... فَعَفٌّ وأمَّـا طَرْفُهُ[3] فَكَلِيلُ[4][5]

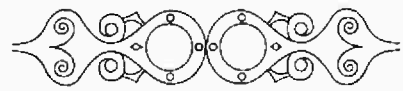

(١) « أدب الدُّنيا والدين » (ص١٨٢) .

(٢) **الفعَال - بفتح الفاء - :** الفِعْل مصدر كالذِّهاب .

(٣) **الطَّرْف :** البَصَر .

(٤) **كليل :** مُتْعَب .

(٥) « روضة العقلاء » (ص٧٦) .

التَّواضع

إنَّ التَّواضُعَ - أخي المحاور - من أهَمِّ طُرُقِ اكتسابِ الحكمَة ، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال .

فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « ما منْ آدميٍّ إلاَّ في رأسه حكمةٌ بيَد مَلَك ، فإذا تَواضعَ قيل للمَلَك : ارفعْ حكمتَهُ ، وإذَا تكبَّرَ قيل للمَلَك: ضَعْ حكْمَتَهُ » (١) .

قال ابنُ حبَّان - رحمه الله - : « على العاقلِ لزُومِ التَّواضُعِ ، ومُجانبة التَّكبُّرِ ، ولو لم يكنْ في التَّواضُعِ خَصْلَةٌ تحمله إلاَّ أنَّ المرء كُلَّما كَثُرَ تواضُعُهُ ازداد بذلك رِفْعَةً ، لكَانَ الواجبُ عليه ألاَّ يتزيَّا بغيره .

والتَّواضُع تواضُعانِ : أحدهما محمود ، والآخر مذموم .

والتَّواضع المحمود : ترك التطاول عَلى عباد الله ، والإزراء بهم .

والتَّواضُعِ المذموم : هو تواضُعُ المرءُ لذي الدُّنيا رغبةً في دُنياه .

فالعاقل يلزم مفارقة التَواضُعِ المذموم على الأحوالِ كُلِّها ، ولا يُفارق التَّواضُعَ المحمود على الجهاتِ كُلِّها » (٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما زادَ اللهُ عبدًا بعَفْوٍ إلاَّ عزّاً ، وما تَواضَعَ أحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ » (٣) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر : « إنَّ العَبْدَ إذا تَوَاضَعَ لله عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه الطَّبَرانيُّ في الكبير (١٢/ ٢١٨) ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/ ٥٦٧٥) ، والصَّحيحة (٥٣٨) .

(٢) « روضة العقلاء » (ص٥٩) .

(٣) أخرَجه مسلم مع شرح النَّوويِّ (٦/ ١٤١) .

رَفَعَ حكَمَتَهُ [١] ، قال : انتعشْ رَفَعَكَ الله ، فهو في نفسه حقيرٌ ، وفي أعيُنِ النَّاس كبيرٌ ، فإذا تكبَّرَ وعدَا طَوْرَهُ ، وهصَهُ إلى الأرضِ ، وقال : اخسَأْ أَخْسَأَكَ الله ، فهو في نفسه كبيرٌ ، وفي أعينِ النَّاس حقيرٌ ، حتَّى إنَّه أحقرُ في أَعْيُنهم من الخنزير » [٢] .

قال الشاعرُ :

تَوَاضعْ تكُنْ كالنَّجْم لاَحَ [٣] لِنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ الماءِ وهو رَفِيعُ
ولا تَكُ كالدُّخانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... إِلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وهو وضِيعُ [٤]

وقال أبو يوسفَ يَعْقُوبُ بن إبراهيم - رحمه الله تعالى - : « يا قومُ ، أَريدوا بعلمكُم اللهَ تعالى ؛ فإنِّي لم أجلسْ مجلسًا قَطُّ أَنْوي فيه أنْ أتَوَاضَعَ إلاَّ لم أَقُمْ حتَّى أعْلُوَهم ، ولم أَجْلِسْ مجلسًا قَطُّ أنوي أنْ أَعْلُوَهم إلاَّ لم أَقُمْ حتَّى أفتضحَ » [٥] .

قال البحتريُّ :

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا وَعَلَوْتَ مَجْدًا ... فَشَأْنَاكَ انخفاضٌ وارتفاعُ
كَذَلك الشَّمْسُ تَبْعُدُ أن تُسَامى [٦] ... وَيَدْنو الضَّوْءُ منها والشُّعَاعُ

---

(١) **الحَكَمَةُ - بفتحات** - : حديدة في اللِّجام تكون عَلَى أنْف الفَرَسِ وحَنَكه ، تَمْنَعه عن مُخالفَةِ راكِبِه وحديث عمر هذا كناية عن الإعزاز ؛ لأنَّ من صفة الذَّليل تنكيس رأسَه .

(٢) أَخْرَجَه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٩/ ٩٠) ، و بإسناده حسن ، وانظر تخريجه في كتابِ جزء من حديث سفيان بن عُيَيْنَةَ بتحقيق الصومان.

(٣) **لاَحَ** : بَرَزَ وظَهَرَ .

(٤) « جواهر الأدب » (ص٧١٣) .

(٥) « تذكرة السَّامع والمتكلِّم » (ص٦٩) .

(٦) **تُسَامى** : تُفاخر .

وقال أيضاً :

كَالبَدْرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وَضَوْءُهُ ... للعُصْبَةِ (١) السَّارينَ (٢) جِدُّ قريبُ

والمحاورُ العاقلَ يرفعُ من شأنِ الآخرينَ ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ التكبُّرَ يُؤَدِّي إلى كراهيته ، وكراهةِ ما عنده من الحقِّ .

نقل الإمامُ الشاطبيُّ عن أبي حامد الغزاليِّ - رحمهما الله تعالى - قولَهُ : «أكثرُ الجهالات إنَّما رَسَخَتْ في قلُوبِ العوامِّ بتعصُّبِ جَهَلَةِ أهلِ الحقِّ ، أظهروا الحقَّ في معرضَ التَّحدِّي والإذلال ، ونظروا إلى ضُعَفَاءِ الخُصُومِ بعينِ التَّحقيرِ والازدراء ، فثارَتْ في بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ، ورَسَخَتْ في قلوبهم الاعتقاداتُ الباطِلَةُ ، وتعذَّرَ على العُلَمَاءِ المتلطِّفينَ مَحْوُها مع ظهورِ فسادها » .

قال أبو نوَاس :

حَذَّرتُ : الكِبْرَ لا يَغْشَاكَ مَبْسَمُهُ ... فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ نَازَعْتَهُ اللهَ

يا بُؤْسَ جِلْدٍ عَلَى جَوْفٍ مجوَّفَةٍ ... يَحْوِي مَقَاذِيرَ ، إِنْ كَلَّمْتَهُ تاهَا

إِنِّي لأَمْقُتُ نَفْسِي عِنْدَ نَخْوَتِها ... فَكَيْفَ آمَنُ مَقْتَ اللهِ إِيَّاهَا ؟!

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله تعالى - في ذكرِ آدابِ الجَدَلِ : « فأوَّلُ شيءٍ فيه ممَّا عليه النَّاظر أنْ يقصدَ التَّقرُّبَ إلى الله سبحانه وتعالى ، وطَلَبَ مرضاته في امتثالِ أمره سبحانه فيما أمرَ به من المعروفِ ، والنَّهْي عن المنكرِ ، والدُّعاءَ إلى الحقِّ عن البَاطلِ ، ويتَّقي اللهَ أن يقصدَ بنظره المباهاة ، وطلبَ الجاهِ والتَّكَسُّبَ ، والمماراة ، والمحكِ ، والرِّياءَ ، ويحذر أليم عِقابَ الله سبحانه

---

(١) العُصْبَة : الجماعة .

(٢) السَّارين : السَّائِرين ليلاً من السُّرى ، وهو سَيْرُ اللَّيل .

وتعالى ، ولا يكنْ قَصْدُهُ الظَّفْرَ بالخصم ، والسُّرور بالغلبةِ والقهر ؛ فإنَّه من دأبِ الأنْعامِ الفحولة : كالكِباشِ ، والدِّيَكَةِ » .

ثُمَّ قالَ : « ويَلْزَم الخشوعَ والتَّواضُعَ ، ويقصدُ الانقيادَ للحقِّ ، فيكون من جملة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزُّمَر : ١٨] » (١) .

وقال ابن المقفع : « تَحَفَّظْ في مجلسك وكلامك من التَّطاول على الأصحاب وطِبْ نَفْسًا عن كثيرٍ مما يَعْرِضُ لك من صَوَابِ القَوْلِ والرَّأي مُدَارَةً ؛ لِئلاَّ يَظنَّ أَصْحابُكَ أنَّ دَأْبَكَ التَّطاولَ عليهم » (٢) .

قال السهيليُّ :

تَوَاضَعْ إِذَا كُنْتَ تَبْغِي العُلا ... وَكُنْ راسِيًا عِنْدَ صَفْوِ الغَضَبْ
فَخَفْضُ الفَتَى نَفْسَهُ رِفْعَةٌ ... لَهُ واعْتَبِرْ بِرُسُوبِ الذَّهَبْ

ومن اللطائف ما ذكره الماورديُّ - رحمه الله - قال : « حُكِيَ أنَّ مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نَظَرَ إلى المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ ، وعليه حُلَّةٌ (٣) يسحبها ، ويمشي الخُيَلاء (٤) ، فقال : يا أبا عبد الله، ما هذِهِ المِشْيَةُ التي يُبْغِضُها اللهُ ورسُولُهُ ؟! .

فقال المُهَلَّبُ : أما تَعْرِفُني ؟! .

فقال : بلْ أعْرِفُكَ ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ ، وآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ ، وَحَشْوُكَ فيما بينَ ذلك بَوْلٌ وعَذِرَةٌ (٥) ، فأَخَذَ ابن عَوْفٍ هذا الكلام ، فَنَظَمَهُ شِعْرًا فقال :

---

(١) « الكافية في الجدل »(ص٥٢٩) .
(٢) « الأدب الصغير والكبير »(ص١٣٤) .
(٣) الحُلَّة : ثَوْبٌ له ظِهارةٌ وبطانةٌ من جِنْسٍ واحد ، جمعها حُلَلٌ .
(٤) الخُيَلاء : الكبرياء ، واحتقار النَّاس ، والعُجْب عليهم .
(٥) العَذِرَة : الغائط .

عَـجِـبْتُ مِنْ مُـعْـجَبٍ بِـصُـوْرَتِه ... وكـــانَ بالأَمْسِ نُطْـفَـةً مَـــذِرَهْ
وفي غَـدٍ -بَعْـدَ حُـسْنِ صُـورَتِه - ... يَصِـيـرُ في اللَّحْـدِ جِـيـفَـةً قَـذِرَهْ
وهو فـي تِيـــهِـــه وَنَخْـــوَتِه ... مَـا بَيْنَ ثَوْبَيْـهِ يَحْمِلُ العَـذِرَهْ » (١)

وأخيرًا قال القحطاني:

وَإِذا غَلَبْـتَ الخَـصْمَ لا تَهْـــزَأْ بِهِ ... فالعُجْبُ يُخْمِـدُ جَمْرَةَ الإحْسانِ (٢)

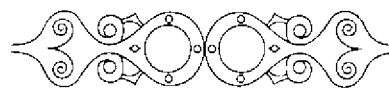

(١) « أدَبُ الدُّنيا والدِّين » (ص٢٣٦-٢٣٧) .
(٢) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

الرَّحْمَةُ بالخَصْمِ

أي أخي ، ما أَنْحَفَ الحوار بمثلِ استعمال الرَّحْمَة ! ؛ فإنَّ صاحبَ القَلْب القاسي يتمنَّى لغيرِه الأخْطَاءَ ، ويتصيَّدها عليهم من غير رحمة ولا شَفَقَة ، والمحاور الرَّحيم يَسْعَى لهداية الآخرين ، فهو يُشْفِقُ عليهم ، ويبأسُ لأخطائِهم، فهو كالأب يفرحُ إذا أصابَ صغَارُهُ الصَّوابَ ، ويتمنَّى لهم الهُدى والرَّشاد .

ولهذا امتدَحَ الله سبحانه وتعالى نبيَّهُ ﷺ ، فقال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا (١) غَلِيظَ الْقَلْبِ (٢) لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

[آل عمران : ١٥٩] .

فقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام رحيمًا برحمة الله لعباده ، ليِّنًا رفيقًا سَمْحًا ، مُبَشِّرًا مُيسِّرًا ، لا منفِّرًا ولا معسِّرًا ، يدعو النَّاسَ بسماحَةِ جَعَلَتْ الأمَّة تنقادُ إليه، كيف لا وهو المبعوث رحمةً للعالمين بنصِّ الكتاب المبين ؟! ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

وتألَّقَتْ فيه رحمته ولينه تألُّقَ الشَّمسِ في رابعةِ النَّهار ، حيثُ أتاه شابٌّ تجري في عروقه حرارةُ الشَّباب ، أتاهُ ليسأله شيئًا ، فيا تُرى عن ماذا سألَهُ ؟ لقد سأله - وبِكُلِّ جُرْأَة - أنْ يأْذَنَ له بالزنى ! ، نَعَمْ الزِّنى ، فانظر - يا أخا الإسلام - كيفَ كَانَ تَصَرُّفُ الرَّحمة المهدَاة ، والنِّعمَة المُسْدَاة معَ هذا الشَّابِّ الجريء ، هل سَبَّهُ ؟ ، هل زَجَرَهُ ونَهَرَهُ ؟ ، هَلْ عَنَّفَهُ وَوَبَّخَهُ ؟ ، لا وربِّ الكَعْبَةِ ، ما فعَلَ من ذَلِكَ من شيءٍ ، إذًا ماذا تراه قال نبيُّ الرَّحْمَة ، وينبوع

---

(١) فظًّا : سيِّئَ الخُلُق .

(٢) غَلِيظَ القَلْبِ : قاسي القلب .

الحنان ، ومَعِينُ الرِّفْقِ واللِّين ؟ .

والقوم من حـولِه قدْ زَجَروا الفـتى - وحُقَّ لهم ذلك - ولكنَّه ﷺ ناداهُ بصوت لَيِّن ، فـقال : « ادْنُ » ، فدَنَا منه قـريبًا ، فـجَلَسَ ، ثُمَّ قال ﷺ : «أتُحبُّـهُ لأُمِّكَ ؟ » ، قال : « لا والله يا رسـول الله جعَلَني اللهُ فـداكَ » ، قال ﷺ : « ولا النَّاسُ يُحبُّونه لأُمَّهاتِهِمْ » .

قال ﷺ : « أَتُحبُّهُ لابنتك ؟ » ، قال : « لا ، جعلَني اللهُ فداكَ » ، قال ﷺ : « ولا النَّاسُ يُحبُّونه لبناتهم » .

ثُمَّ أخَذَ يُعَدِّدُ عليـه : أفتُحبُّه لأختك ، لعمَّـتك ، لخالتك . . . ، والشَّابُّ يقول : « لا - والله - ، جعلَني اللهُ فداكَ » .

فوضعَ النَّبيُّ ﷺ يدَهُ الشَّريفـة عليه ، وقال : « اللَّهُمَّ اغْفـرْ ذَنْبَهُ ، وطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » ، فلم يكنْ الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيءٍ [(١)] .

فتدبَّر - أخي - وتأمَّلْ ، فهذا الشَّابُّ عارم الشَّهوة ، ثائر الغريزة ، صريح في التَّعبـير عن نوازعه إلى حدِّ الإغرابِ والإثارة ، ومـع غرابَة طلبه الذي أثارَ عليه الجالسين ، لم يكنْ من المحاور الحكيم الرَّحيم ﷺ إلاَّ أنْ لَقِيَهُ بهذا الرِّفق العـجيبِ ، والحـوار الهادئ مـراعاةً لحـاله ، ومع الحـوارِ المُناسبِ ، واللَّمْسَـة اللَّطيفة ، والدُّعاء المبارك ، قام ذلك الفتى والزِّنى أكْرَهُ شيءٍ إلى نفسه .

دَعَـاني وَاعِـظي للحَـقِّ قُـدُمًـا ... وقَـالَ : أَلاَ تَتُـوبُ عَنِ الغَـوَانِي [(٢)]

وقَـال برأفَـةٍ : أَوَجَـدْتَ طرقًـا ... إِلَى القَلْـبِ المُعَنَّى [(٣)] بالأمـاني؟

---

(١) أخرَجَـهُ الإمام أحمـد في المسند(٥/ ٢٥٦) بإسناد صحيح ، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (١/ ٣٧٠) .

(٢) الغواني : جمع غانية ، وهي المرأة الجميلة ، سُميت غانية لاستغنائها بحُسْنها وجمالها عن الحُليِّ ونحوه .

(٣) المعنَّى : مأخوذ من عَنِيَ عَنَاءً ، وهو المتعبُ الحزين ، والمُكَلَّف ما يَشُقُّ عليه .

أجَابَ القَلْبُ دَاعِيَهُ ، فَأَحْيَا بِهَا جَسَدًا ضَعِيفًا كَانَ وَانِي [١]
فَحَمْدًا لِلَّذِي أَعْطَى نَعِيمًا وَحَمْدًا خَالِقِي ، يَا مَنْ هَدَانِي

ولا تَظنَّ - أخي المحاور - أنَّ هذا الأثرَ العجيب الذي تركه ﷺ في نفْسِ هذا الشَّابِّ من هُدوءِ نفسٍ ، وإعراضٍ عن الزِّنى الذي كان يتوقُ إليه ، ويرغبُ في ، كان مُعْجِزَةً خارِقَةً للنَّبيِّ ﷺ لا تتكرَّرُ لغيرِهِ إلاَّ من بابِ الكرامَةِ أو خوارِقَ العاداتِ ، كلاَّ فإنَّ محاورٍ ربَّانيِّ الوِجْهَةِ ، نبويِّ الطَّريقة ، يقتَدي برسولِ الله ﷺ قولاً وعملاً سيجد - بتوفيقِ الله تعالى - الأثرَ نفسَهُ ، أو قريبًا منه [٢] .

دَعَاكُم إِلَى خَيْرِ الأُمورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوَالي [٣] في القَنَا [٤] كالسَّوافِلِ

---

(١) الواني : الضَّعيف .
(٢) « المنهاج النَّبوي في تربية الشَّباب »(ص١٥٣) .
(٣) العَوالي : جمع عالية ، وهي ما يلي موضع السِّنان من الرُّمح .
(٤) القَنَا : جمع قَنَاة ، وهي رُمحٌ في رأسِهِ سِنانٌ من الحديد الصلب الحادّ .

الهدوء

لا شكَّ أنَّ الغَضَّ من الصَّوتِ فيه أدَبٌ مع اللهِ ومع النَّاسِ ، وثقةٌ بالنَّفْسِ، واطمئنانٌ إلى صدْقِ الحديثِ وقوَّتِه .

ومن هنا كان توجيه لُقمان لابنه بغضِّ الصَّوْتِ وتقصيره ، قال الله تعالى على لِسانِهِ : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان : ١٩].

قال ابنُ كثير - رحمه الله - في تفسيرِ الآية : « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ، أي لا تُبالغْ في الكلامِ ، ولا ترفعْ صوتَكَ فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مُجاهدٌ وغيرُ واحد : إنَّ أقبحَ الأصواتِ لصوت الحميرِ ، أي غاية مَنْ رفع صوتَه أن يُشَبَّهَ بالحميرِ في عُلُوِّهِ ورفعه ، ومع هذا هو بغيضٌ إلى الله ، وهذا التَّشبيه في هذا بالحميرِ يقتضي تحريمَهُ ، وذَمَّهُ غايةَ الذَّمِّ » (١) .

وقال العلامة ابن سعدي - رحمه الله - في تفسيرها : « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أدبًا مع النَّاسِ ومع الله ، ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ ﴾ أي أفظعَها وأبشعَها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، فلو كانَ في رفعِ الصَّوتِ فائدةٌ ومصلَحَةٌ ، لما اختصَّ بذلك الحمار الذي قد علمتَ خِستَهُ وبَلادَتَهُ » (٢) .

ورفع الصوت حالَ المحاورَةِ من صفاتِ وخصائص الجَدَل المذموم ؛ لأنَّ رَفْعَ الصوت - غالبًا - فوق مقدار الحاجَة لا يُظْهِر حقّاً ، ولا يُبْطِلُ باطلاً .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٣٠) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (ص٦٤٩) .

قال الشاطبيُّ - رحمه الله - : « رَفْعُ الصَّوْتِ من خواصِّ الجَدَلِ المذموم ؛ لأنَّ رَفْعَ الصَّوتِ ، والخُروجَ عن الاعتدالِ فيه ناشئٌ عن الهوَى في الشَّيء المتكلم فيه »[١] .

فعلَى المحاورِ ألاَّ يرفَعَ صَوْتَهُ أكثَرَ ممَّا يحتاجُ إليه السَّامعُ ، ففي ذلك رعونةٌ وإيذاءٌ ، فالمحاور غير الخطيب ، ورفع الصَّوْتِ لا يُقوِّي حُجَّة صاحبه قَطُّ ، بلْ إنَّ صاحبَ الحُجَّة الضَّعيفة يحول إضفاء هذا الضَّعف بالحِدَّة والغلْظَة والزُّعام ، وفي أكثر الحالات يكون صاحبَ الصَّوْتِ الهادئ هو الذي يعكسُ عقلاً متَّزِنًا ، وفكرًا مُنتظمًا ، وحُجَّةً وموضوعيَّةً ، وانظر - رحمك الله - إلى البَحْرِ تجد الصَّخَبَ والضَّجيج على الشَّاطئِ وعندَ الصُّخورِ ، حيثُ الماءُ ضَحْلٌ لا جواهرَ فيه ولا دُرَر ، وتجدْ الهُدُوءَ لدى الماءَ الأعمق ، حيثُ نفائسُ البَحْرِ وكُنُوزُهُ ، وفي بعْضِ الأمثالِ : « الماءُ الأعْمَقُ أهْدأُ » .

وَقَدْ وُجِدَ - بالخبْرَةِ والتَّجْرِبَةِ - أنَّ الصَّوتُ المعتدلُ الهادئ المتأنِّي ، من غَيْرِ صراخٍ أو صياحٍ ، ومن غَيْرِ إسْرارٍ وإخْفاتٍ هو الأدْخَلُ في النفوسِ ، والأنْفَذُ إلى الأعْماقِ ، والأحْفَظُ لجلالِ الكلمةِ ، ووقَارِ المُتكَلِّمِ[٢] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

أَرَى البَحْرَ حَيْثُ العُمْقُ والدُّرُّ هَادئًا ... ويُلْقَى ضَجِيجُ البَحْرِ عِنْدَ السَّواحلِ

فَكُنْ هَادئًا طَبْعًا تكُنْ ذا مَهَابَةٍ ... ولا تَرْفَعَنَّ الصَّوْتَ عِنْدَ التَّجادُلِ

فَصَوْتُكَ لا يُعْطِيكَ قُوَّةَ حُجَّةٍ ... وَغَضُّكَ لا يُرْدِيكَ بَيْنَ الأَراذِلِ

فَعَقْلُ الفَتَى عُنْوانُهُ في لِسَانِهِ ... وَعِلْمُ الفَتَى يُعْلِيهِ عَنْ كُلِّ سَافِلِ

---

(١) « الاعتصام » (٢/ ٩٤) .

(٢) « في أصول الحوار » (ص٩٧) بتصرُّفٍ .

فيا لله كَمْ من هادئٍ عَفَّ اللِّسان حَليمٍ كاظمٍ للغيظِ أقدرُ على نُصْرَةِ الحَقِّ من غَيْرِهِ ! .

قال أبو عثمان بن الإمام الشافعيّ - رحمهما الله - : « ما سمعتُ أبي يُناظِرُ أحدًا فرفَعَ صَوْتَهُ » (١) .

وقال الخطيبُ البغداديّ - رحمه الله - في ذكر آداب الجدل والمناظرة : « ويستشعر في نفسه الوقَارَ ، ويستعملَ الهُدوءَ ، وحُسْنَ السَّمْتِ ، وطُولَ الصَّمْتِ إلاَّ عندَ الحاجَةِ » (٢) .

وقال أيضًا : « وإن فحشَ الخَصْمُ في جوابِهِ ، وأحالَ في حجاجه ، فينبغي ألاَّ يحتدَّ عليه ؛ ليحذر من الصِّياحِ في وجْهِهِ ، والاستخفافُ به ؛ فإنَّ ذلك من أخْلاقِ السُّفَهَاءِ ، ومَنْ لا يتأدَّبُ بأدَبِ العلماءِ » (٣) .

وما من شَكٍّ أنَّ الأَحْبالَ الصَّوتيَّة لا تنوبُ عن الحُجَّةِ القويَّة ، وحقيقة الحال، كما قال أحدُهم :

صِغَارُ الأُسْدِ أكْثَرُهَا زَئِيْرًا وَأَصْرَمُهَا اللَّواتي لا تزأرُ

رُوِيَ أنَّ المزَنيَّ - رحمه الله - ناظَرَهُ إنسانٌ كثيرُ الصِّياحِ ، كثيرُ الشَّغَبِ ، فقال المُزَنيُّ : « أخْبَرَنا الشافعيُّ أنَّ أبا حنيفة ناظَرَ رجلاً ، فكثُرَ صياحُ أبي حنيفَةَ، فمرَّ رجلٌ وقال : أخْطَأْتَ يا أبا حنيفة . فقال أبو حنيفة : ما هذه المسْأَلَة ؟ . قال الرَّجلُ : لا أدري . فقال أبو حنيفة : فكيف عرفتَ أنِّي أخْطَأْتُ ؟! . فقال الرَّجُلُ : لأنَّك إذا أخْطَأْتَ صحْتَ ، وإذَا أصَبْتَ رَفَقْتَ ؛ فعلمتُ أنَّك أخْطَأْتَ حيثُ رأيتُكَ تصيح ! » (٤) .

---

(١) « مناقب الشَّافعيّ » للبيهقيّ (١/ ٢١٧) .
(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٢٧) .
(٣) المرجع السَّابق (٢/ ٣٥) .
(٤) « مناقب الشَّافعيّ » للرَّازيّ (ص ٣٦٠) .

ومن اللَّطائف أنَّ ابن عنين الشَّاعر سمع فقيهين كانا بدمَشْقَ يَنْبُزُ أحدهما بالبغلِ ، والآخرُ بالجاموسِ ، فقال :

البَغْلُ والجاموسُ في جَدَلَيْهِما ... قَدْ أَصْبَحَا عِظَةً لكُلِّ مُنَاظِرِ
بَرَزَا عَشِيَّةَ لَيْلَةٍ فَتَبَاحَثَا ... هَذا بقَرْنَيْهِ ، وذَا بالحافِرِ
مَا أتقنا غَيْرَ الصِّياحِ كَأَنَّما ... لُقِّنا جِدَالَ المرتَضَى بْنِ عَسَاكِرِ

ورحمَ اللهُ الإمامَ الشافعيَّ . فقدْ كانَ يقولُ :

إذَا مَا كُنْتَ ذَا فَضْلٍ وعِلْمٍ ... بِمَا اخْتَلَفَ الأَوائِلُ والأَواخِرْ
فَنَاظِرْ مَنْ تُنَاظِرُ في سُكُونٍ ... حَلِيمًا لا تُلِحُّ ولا تُكَابِرْ
يُفِيدُكَ ما استَفَادَ بلا امتِنانٍ ... منَ النُّكَتِ [1] اللَّطِيفَةِ والنَّوادِرْ
وَإِيَّاكَ اللَّجُوجَ [2] وَمَنْ يُرَائِي ... بِأَنِّي قَدْ غَلَبْتُ ، ومَنْ يُفَاخِرْ
فَإِنَّ الشَّرَّ في جَنَبَاتِ هذَا ... يُمَنِّي بالتَّقَاطُعِ والتَّدابُرْ [3]

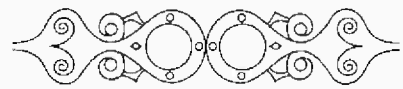

(١) النُّكَت : جَمع نُكْتَة ، وهي الفكرَة اللَّطيفة المُؤثِّرَة في النَّفْسِ ، والمسألَة العلميَّة الدَّقيقة ، يُتَوَصَّل إليْها بدقَّة وإنعام فكرٍ .

(٢) اللَّجوجَ : المتمادي في الخصومة ، مأخوذٌ من لجَّ في الأمر لَجَاجًا ولجاجةً ، إذا لازَمَهُ وأبَى الانصراف عنه .

(٣) ديوان الشَّافعيِّ (ص٦١) تحقيق البقاعي .

الصدق

لا شكَّ أنَّ الصِّدْقَ من أهَمِّ صفاتِ المحاور ، فالنَّاسُ إذا علموا صِدْقَ اللَّهجة من المحاور أكرموه ، وأجلُّوه وسوَّدوه ، وحرصوا على صُحْبَتِه ، وأصاخوا السَّمْعَ لحواره ، واستَاروا برأيه ، وأخَذوا بقوله ، فتطيبُ حياته ، ويكثُرُ أُنْسُهُ ، وتسْعَدُ نَفْسُهُ ، واللهُ سبحانه وتعالى أمَرَ بالصِّدْقِ ، وأثْنَى على الصَّادِقينَ ، فقال : ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونُوا مع الصَّادقين (١١٩) ﴾ [التَّوبَة : ١١٩] .

وأخْبَرَ سبحانه وتعالى أنَّ الصَّادقينَ ينفعهم صدْقُهم يومَ القيامَة ، فقال : ﴿ قالَ اللَّهُ هذا يومُ ينفعُ الصَّادقين صدْقُهم لهُم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبدا رَضيَ اللَّهُ عنهُم ورضُوا عنهُ ذلكَ الفوزُ العظيم (١١٩) ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وقال سبحانه : ﴿ ليجزي اللهُ الصادقين بصدْقهم ﴾ [الأحزاب : ٢٤] .

وأخْبَرَ سبحانه وتعالى أنَّ الشَّياطين تُنَزَّل عَلَى كُلِّ أفَّاكٍ أثيم ، فقال : ﴿ هل أنبئكُم على من تنزَّلُ الشَياطينُ (٢٢١) تنزَّلُ على كُلِّ أفَّاكٍ أثيم (٢٢٢) ﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٢١ ، ٢٢٢] ، فَعَلَى قَدْرِ كذبِ الشَّخْصِ تمدُّه الشَّياطينُ في غيِّه وضلاله .

وفضلاً عن ذلك فالصِّدْقُ يهدي إلى البرِّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّة ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهْدي إلى الجنَّة ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عنْدَ الله صدِّيقًا ، وإنَّ الكذبَ يَهْدي إلى الفُجُور ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلَى النَّار ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذبُ حتَّى يُكْتَبَ عنْدَ الله كَذَّابًا » (١) .

---

(١) أخْرَجَهُ البخاريُّ (٦٠٩٤) .

وفي روايةٍ لمسلم : « عليكم بالصِّدْق ؛ فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهْدي إلى الجنَّة ، وما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ، ويتحرَّى الصِّدْقَ ، حتَّى يُكْتَبَ عندَ الله صِدِّيقًا ، وإيَّاكم والكَذِب ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجُور ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّار ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ، ويتحرَّى الكَذِبَ ، حتَّى يُكْتَبَ عندَ الله كذَّابًا » (١) .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « كُلُّ شيءٍ يُسْتَعارُ ليُتَجَمَّلَ به سَهْلٌ وجودُهُ خلَدَ اللِّسان ؛ فإنَّهُ لا يُنْبِئُ إلاَّ عمَّا عُوِّدَ ، والصِّدْقُ يُنْجي ، والكذبُ يُرْدي ، ومَنْ غلَبَ لسانَهُ أمَرَهُ قومُهُ ، ومَنْ أكْثَرَ الكذبَ لم يتركْ لنَفْسِهِ شيئًا يُصَدَّقُ به ، ولا يكْذِبُ إلاَّ مَنْ هانَتْ عليه نَفْسُهُ » (٢) .

قال الشاعرُ :

الكَذِبُ مُرْدِيكَ ، وإنْ لم تَخَفْ ... والصِّدْقُ مُنْجيكَ عَلَى كُلِّ حَال

فَانْطُقْ بِمَا شِئْتَ تَجِدْ غِبَّهُ (٣) ... لَمْ تُبْتَخَسْ (٤) وَزْنَةُ مِثْقَالِ (٥)

وقال آخرُ :

كَذَبْتَ وَمَنْ يكْذِب فَإنَّ جَزَاءَهُ ... إذَا مَا أتَى بالصِّدْقِ ألاَّ يُصَدَّقَا

إذَا عُرِفَ الكَذَّابُ بالكَذِبِ لَمْ يَزَلْ ... لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا وَإنْ كَانَ صَادقا

وَمِنْ آفَةِ الكَذَّابِ نِسْيَانُ كَذْبِهِ ... وَتَلَقَّاهُ ذَا فِقْهٍ إذَا كَانَ حَاذِقا (٦)

وصِدْقُكَ أخي المحاور في حوارك مَدْعاةٌ لقبول حوارك ، ألا تَرَى أنَّ رسولَ

---

(١) أخرجَهُ مُسْلِم (٧ ، ٢٦) .
(٢) « روضة العُقلاء » (ص ٥٢) .
(٣) غِبُّ الشَّيْءِ : عَاقِبَتُهُ .
(٤) لَمْ تُبْتَخَسْ : لَمْ تُنْقَصْ .
(٥) « روضة العقلاء » (ص ٥٢) .
(٦) المرجع السَّابق .

الله ﷺ قال للمشركين : « أَرَأَيْتُكُمْ[1] لو أخبرْتُكم أنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بسَفْحِ هذا الجَبَلِ ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقيَّ ؟ » ، قالوا : « ما جَرَّبْنا عليك كَذِبًا » .

وفي رواية أخرى للبخاريِّ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أنَّ العدوَّ يُصَبِّحُكُمْ أو يُمَسِّيكُمْ[2] أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ » قالوا : « بَلَى »[3] .

وهرَقْلُ لَمَّا سَأَلَ مُشْرِكِي مكَّةَ عن رسولِ الله ﷺ فقال لهم : « فَهَلْ كُنْتُم تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قبْلَ أنْ يقولَ ما قَالَ ؟ » قال أبو سُفيانَ: « لا » ، فقال هرَقْلُ : « فقَدْ أعْرِفُ أنَّهُ لَمْ يكُنْ لِيَذَرَ الكذِبَ على النَّاسِ ، ويكذِبَ على اللهِ »[4] .

قالَ الشاعرُ:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الخَيْرِ تَحْظَ بِهِ ... إنَّ اللِّسَانَ لِما عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي ما سَنَنْتَ لَهُ ... في الخَيْرِ والشَّرِّ فانْظُرْ كَيْفَ تَرتادُ[5]

وبِصِدْقِ الحوارِ تُقْطَعُ مجادلاتٌ ، وتزولُ إشكالاتٌ ، ومن ذلكَ قولُ كَعْبُ بن مالك رضي الله عنه لرَسولِ الله ﷺ لَمَّا تَخَلَّفَ كَعْبٌ عن الغَزْوِ : « إنِّي والله لو جلسْتُ عندَ غيرِكَ من أَهْلِ الدُّنيا ، لرأيتُ أنْ سَأَخْرجَ من سَخَطِه بعُذْرٍ ، ولقد أُعْطيتُ جَدَلاً ، ولكني - والله - لقدْ علمتُ لَئِنْ حدثتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرْضى به عنِّي ، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فيه ، إني لأرجو فيه عُقْبَى الله » ، ثُمَّ قالَ كعبٌ : « والله ، ما كانَ لي عُذْرٌ ، والله ، ما كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ منِّي حينَ تَخَلَّفْتُ عنك »

---

(١) **أرأيتكم : أخبروني.**

(٢) **يعني يُغير عليكم صباحًا أو مساءً .**

(٣) أخرجَهُ البخاريُّ (٤٧٧٠) و(٤٨٠) و(٤٩٧١) و(٤٩٧٢) ، ومسلم (٢٠٨) عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما .

(٤) أخرجَهُ البخاريُّ (٧) و(٢٩٤١) و(٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣) .

(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » **للماوردي** (ص٢٦٣) .

فقال رسولُ الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقمْ حتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيك »(١) .

والصِّدْقُ : هو أن يُخْبِرَ المحاورَ عمَّا يعتقده أنَّه الصَّواب ، وأنَّه مطابقٌ للواقعِ بِلا زيادةٍ ، ولا نُقْصانٍ .

وكما يكون الصِّدْق بالقَوْلِ ، يكونُ بالفعلِ ، والإشَارَةُ باليدِّ ، أو هَزِّ الرَّأسِ، وقَدْ يكونُ بالسُّكوتِ .

وضِدُّه الكَذب ، وهو عملٌ مرذولٌ ، وصِفَةٌ ذميمةٌ ، وخَصْلَةٌ من خصالِ النِّفاقِ ، وشُعْبَةٌ من شُعَبِ الكفر ، والكذبُ قبيحٌ ، وأَقْبَحُ الكذب القولُ على الله بغيرِ علمٍ ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (١١٦) ﴾ [النَّحل : ١١٦] ، وقال سبحانه : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين (٦٠) ﴾ [الزُّمَر : ٦٠] .

وعن المُغيرةَ بن شُعْبَةَ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : إن كَذِبًا عليَّ ليس ككَذِب على أحَدٍ ، فمَنْ كَذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا ... من النار (٢) .

ومن ذلك الكذب على أهلِ العلْمِ ، فينقلُ عنهم خلافَ قَوْلِهم ، أو ينقل عنهم كلامًا ناقصًا ، أو يقطَعَ عبارةً عن سياقها ، أو يعزلها عن مناسبتها ؛ ليقصرها على خدمة رأيه ، أو ينسب إليهم كلامًا لم يصحَّ عنهم البتَّةَ فهذا دليلٌ على ضِعَةِ النَّفسِ ، وحقارة الشَّأن ، ويُنْظَر لصاحبه بعيْنِ الخيانَة، وفي منثورِ الحكَم : « الكذَّاب لِصٌّ ؛ لأنَّ اللِّصَّ يسرقُ مالَكَ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٤١٨) ، ومسلمٌ (٢٧٦٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (١/ ٣٥) ، ومسلم (١/ ١٠) برقم (٤) .

والكذَّابُ يسرقُ عقلَكَ » (١) .

قال الشاعر:

إذَا مـــــا المَـرْءُ أخْطَأَهُ ثَـلاثٌ ... فَـبِـعْـــهُ ولَوْ بِـكَفٍّ مِنْ رَمَـــاد

سَـــلامَـةُ صَـــدْرِهِ والصِّـــدْقُ مِنْهُ ... وكِـتْـمَـانُ السَّـرَائِرِ في الفُـؤَادِ (٢)

وقال ابن حبان رحمه الله - : « اللِّسانُ سَبُعٌ عَقُورٌ ، إنْ ضَبَطَهُ صاحبُهُ سَلِمَ ، وإنْ خَلَّى عنه عَقَرَهُ ، وبفَمِه يُفْتَضَحُ الكذوب ، فالعاقلُ لا يشتغل بالخَوْضِ فيما لا يعلمُ ؛ فَيُتَّهَمَ فيما يعلَمُ ؛ لأنَّ رَأْسَ الذُنوبِ الكَذبُ ، وهو يُبْدي الفضائح ، ويكتم المحاسن ، ولا يجب على المرءِ إذا سَمِعَ شيئًا يعيب أنْ يُحَدِّثَ به ؛ لأنَّ مَنْ حَدَّثَ عن كُلِّ شيءٍ أَزْرَى برأيه ، وأَفْسَدَ صِدْقَهُ » (٣) .

وقال أيضا : « الصِّدْقُ يَرْفَعُ المَرْءَ في الدَّارَيْنِ ، كـما أنَّ الكذب يَهْوي به في الحالين ، ولو لم يكن في الصِّدْقِ خَصْلَةٌ تُحْمَدُ إلاَّ أنَّ المرءَ إذَا عُرِفَ به قُبِلَ كَذِبُهُ وصارَ صِدْقًـا عِنْدَ مَنْ يسْمَعه ، لكان الواجبُ علَى العاقلِ أنْ يبْلُغَ مـجْهودَهُ في رياضة لِسَانِه ، حَتَّى يَسْتقيمَ له عَلَى الصِّدْقِ ، ومُجَانَبَةِ الكذبِ » (٤) .

وقال بعض الحكماء : « عَلَيْكَ بالصِّدْقِ ، فمـا السَّيْفُ القاطعُ في كفِّ الرَّجُلِ الشُّجاع بأعَزَّ من الصدْقِ ، والصـدْقُ عِزٌّ وإنْ كان منه ما تكره ، والكذبُ ذُلٌّ ، وإن كانَ فيه ما تُحبُّ ، ومَنْ عُرِفَ بالكَذِبِ اتُّهِمَ بِالصِّدْقِ » (٥) .

وقال طرفة بن طريف : « ما يَسُرُّني أني كذبتُ ، وأنِّي لي الدُّنيا وما فيها » (٦) .

---

(١) « أدب الدنيا والدين » (ص٢٦١) .
(٢) « روضة العقلاء » (ص٥٣)
(٣) المرجع السَّابق (ص٥٣) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٥٤) .
(٥) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٢) .
(٦) « السِّيَر » (٦/ ١٢٨) .

وقال بعض الحكماء: « الصِّدْقُ عِزٌّ ، والكَذِبُ خُضُوعٌ » (١) .

وقال آخرُ : « لو لَم يترك العاقلُ الكذبَ إلاَّ مُرُوءَةً ، لقد كان حقيقًا بذلك، فكيف وفيه المَأْثَمُ والعارُ ؟! » .

وقال الشاعرُ :

إذَا الأمـــــــورُ تَـزَاوَجَـتْ ... فـالصِّـدْقُ أَكْـرَمُـهـا نِتَـاجـا

والصِّـــدْقُ يعـــقـــدُ فَـــوْقَ رَأْ ... سِ حَلِيـــفِـــهِ بالصِّـــدْقِ تَاجـا

والصِّـــدْقُ يَـقْـــدَحُ زَنْدُهُ (٢) ... في كُلِّ نَـاحِـيَـةٍ سِـرَاجـا (٣)

وقال ابن السماك: « ما أَحْسَبُني أُوْجَرُ علَى ترك الكذب؛ لأنِّي أتركُهُ أَنَفَةً» (٤) .

وقال الشعبيُّ : « عَلَيْكَ بالصِّدْقِ حيثُ ترى أنَّهُ يضرُّكَ ؛ فإنَّه ينفعُكَ ، واجتنبْ الكذبَ حيثُ ترى أنَّه ينفعُكَ ؛ فإنَّه يَضُرُّكَ » .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله - : « آلاتُ الرِّياسة خَمْسٌ : صِدْقُ اللَّهْجَةِ ، وكِتْمانُ السِّرِّ ، والوفاءُ بالعَهْدِ ، وابتداءُ النَّصيحَةِ ، وأداءُ الأمانة » (٥) .

وأخيرًا قال الشاعرُ:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَـرِيمٍ كَانَ ذا شَرَفٍ ... قَدْ شَانَهُ الكَذِبُ وَسَطَ الحَيِّ إنْ عمدا

وآخـرٍ كَانَ صُـعْلُوكًـا (٦) فَـشَرَّفَـهُ ... صِدْقُ الحَدِيثِ وقولٌ جَانَبَ الفَنَدا(٧)

فَـصَارَ هَذَا شَـرِيفًـا فَوْقَ صَـاحِبِـهِ ... وَصَـارَ هَذَا وَضِيـعًـا تَحْتَـهُ أَبَدا (٨)

---

(١) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٣) .

(٢) **الزَّنْدُ في الأصل** : العود الذي يقتدح به النَّار ، جمعه أَزْناد وزِنَاد .

(٣) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٣) .

(٤) المرجع السابق (ص٤٣٣) .

(٥) « السير » (١٠/ ٤٢) .

(٦) **صُعْلُوكًا** : فقيرًا .

(٧) **الفَنَدْ - بفتحتَين -** : الكَذِب .

(٨) « روضة العقلاء » (ص٥٥) .

الإنصاف

أي أخي ، لا شكَّ أنَّ الإنصافَ في المُحاورَةِ مِنْ صفاتِ الربَّانيِّين الذين لا يرجونَ إلاَّ الحقَّ ، فهو آية حُسْنِ الخُلُقِ ، وعُنوانُ عُلُوِّ الهمَّةِ ، يدلُّ على نفسٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وأُفُقٍ واسعٍ ، ونظرٍ في العواقب بعيدٍ .

ومن الإنصافِ قَبُولُ الحقِّ من كُلِّ مَنْ قاله كائنًا من كانَ ، حتَّى من المُبتَدِعِ بلْ الكافر ، وهذا هو لُبُّ الإنْصاف ولُبابُهُ ، بلْ مَرْبَطُ الفَرَسِ وبيتُ القَصيد .

قال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاَّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون (٨) ﴾ [المائدة : ٨] .

وعَنْ قتيلة بنت صَيْفيٍّ الجُهَنيَّة قالتْ : « أتَى حبرٌ من الأحبارِ رسولَ الله ﷺ ، فقال : « يا مُحَمَّدُ ، نِعْمَ القَومُ أنتم ، لولا أنَّكم تُشْركون » ، فقال رسول الله ﷺ : « سُبْحانَ الله ، وما ذاكَ ؟! »، قال : « تقولون - إذا حلفتم- والكَعْبَة ! » .

قالتْ : فَأمْهَلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا ، ثم قال : « إنَّه قد قال . فَمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلفْ بربِّ الكَعْبَة » .

قال : « يا مُحَمَّدُ ، نِعْمَ القومُ أنتم ، لولا أنَّكم تجعلون لله نداً ! » ، قال: « سُبْحانَ الله وما ذاكَ ؟! » ، قال : « تقولون : ما شاءَ اللهُ وشئتَ » .

قالتْ : فأمْهَلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا ، ثُمَّ قال : « إنَّه قدْ قالَ ، فَمَنْ قال : ما شاءَ اللهُ ، فليفصلْ بينهما ثُمَّ شئتَ » (١) .

---

(١) أخْرَجَهُ أحْمَد (٦/ ٣٧١-٣٧٢) ، والحاكم (٤/ ٢٩٧) ، و صحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ ، وصحَّحهُ - أيضًا - الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/ ٦٢١٤) ، والصَّحيحة (١٣٦) .

وقال في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان الذي أراد أنْ يسرقَ من طعامِ الزَّكاة ، فأمسكه ثمَّ أطلقه ، ثُمَّ قال له في الثَّالثة : « لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ الله ﷺ ، وهذا آخرُ ثلاث مرَّات أنَّكَ تزعمُ لا نعودُ ، ثُمَّ تعود » .

قال : « دَعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ ينفعُك اللهُ بها » ، قلتُ : « ما هُنَّ ؟ » ، قال : « إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ ، فاقرأْ آيةَ الكُرسيِّ ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتَّى تختمَ الآية ؛ فإنَّك لَنْ يزالَ عليك من الله حافظٌ ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصْبِحَ » ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ » (١) .

قال الشاعر:

عُداتي (٢) لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ ومِنَّةٌ ... فلا أُعَدَ الرَّحْمَنُ عنِّي الأَعَادِيَا

هُمْ بَحَثُوا عَنْ سَوْءَتي فَاجْتَنَبْتُها ... وهم نافسوني ، فاكْتَسَبْتُ المعاليَا

وفي هذا الباب يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « واللهُ قدْ أَمَرَنا ألاَّ نقول عليه إلاَّ الحقَّ ، وألاَّ نقولَ عليه إلاَّ بعلْمٍ ، وأمرنا بالعَدْلِ والقِسْطِ ، فلا يجوزُ لنا إذا قال يهوديٌّ أو نصرانيٌّ - فضلاً عن الرَّافضيِّ - قولاً فيه حقٌّ أن نتركه، أو نَرُدَّهُ كُلَّهُ، بلْ لا نردُّ إلاَّ ما فيه من الباطلِ دونَ ما فيه من الحقِّ» (٣) .

وقال الشوكاني - رحمه الله - : « ومن الآفات المانعة عن الرُّجوعِ إلى الحقِّ أن يكونَ المتكلِّمُ بالحقِّ حدثَ السِّنِّ بالنِّسْبَة إلى مَنْ يُناظِره ، أو قليلَ العلْمِ، أو الشُّهرة في النَّاسِ ، والآخرُ عكسَ ذلك ؛ فإنَّه قد تحمله حَمِيَّةُ الجاهليَّة ، والعَصَبِيَّةُ الشَّيطانيَّةُ على التَّمسُّك بالباطلِ أَنَفَةً منه عن الرُّجوعِ إلى قَوْلِ مَنْ هو أَصْغَرُ منه سِنّاً ، أو أقلُّ منه علمًا ، أو أَخْفَى منه شُهْرَةً ، ظَنّاً منه أنَّ في ذلك

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (٣٢٧٥) و(٥٠١٠) .

(٢) العُدَاة : جمع عَاد .

(٣) « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » (٢/ ٣٤٢) .

عليه ما يُحطُّ منه ، وينقُصُ ما هو فيه ، وهذا الظَّنُّ فاسدٌ ؛ فإنَّ الحطَّ والنَّقْصَ إنَّا هو في التَّصميمِ على البـاطلِ ، والْعُلُوَّ والشَّرف في الرُّجوع إلى الحقِّ بيدِ مَنْ كانَ ، وعلى أيِّ وجهٍ حصلَ » (١) .

وفي ذلك يقول ابنُ القيم - رحمه الله - في نونيته :

وتَعَـرَّ مِنْ ثَوْبَيْـنِ مَنْ يَلْبَسُـهُمـا ... يَـلْقَـى الرَّدَى بمَـذَمَّـــةٍ وَهَـوانِ
ثوبَ مِنَ الجَـهْلِ المركَّب فَـوْقَـهُ ... ثَوْبُ التَّـعَـصُّبِ ، بِئْسَتِ الثَّـوبانِ
وتَحَلَّ بـالإنْصـافِ أَفْـخَـرِ حُلَّةٍ ... زِيْنَتْ بها الأَعْطَافُ(٢) والكَتِـفانِ(٣)

وإذا ذكـرتَ مـا لكَ وما عليْكَ من الأدلَّة والبـراهين ، فقـد بلغتَ قـمَّـة الإنْصاف ؛ فـإنَّ كتم أدلَّة الطَّـرف الآخر من أخلاق المغـضوب عليـهم ، الذين يلبسـونَ الحقَّ بالباطلِ ؛ قـال اللهُ تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب لم تلبسون الحقَّ بالباطلِ وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون (٧١) ﴾ [آل عمران : ٧١] .

وأخَذَ بعضُ المبتدعـةِ هذه الصِّفَة الذَّميمة عن اليهـودِ ؛ ولهذا قال وَكِيعُ بْنُ الجرَّاح - رحمه الله - : « أَهْلُ العِلْمِ يكتبونَ ما لهم وما عليهم ، وأهلُ الأهواءِ لا يكتبون إلاَّ ما لهم » (٤) .

وقال ابن تيمية - رحمه الله - : « يجبُ أن يكونَ الخطابُ في المسائلِ بطريق ذكر دليل كُلِّ قَوْلٍ ، ومُعارَضَة الآخر له ؛ حتَّى يتبيَّنَ الحقُّ بطريقه لِمَنْ يُريدُ اللهُ هدايته » (٥) .

---

(١) « أدب الطَّلَب ومنتهى الأرب » (ص٦٦) .
(٢) **الأعْطاف** : جمع عِطْف ، وهو الجانب .
(٣) « نونيَّة ابن القيم بشرح محمد خليل هرَّاس » (١/ ٥٢) .
(٤) « سنن الدارَقُطْنيّ » (١/ ٢٦) .
(٥) « الفتاوى » (٨/ ٨ - ١٠) .

قال الشاعر:

إذا أنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أخَاكَ وَجَدْتَهُ ... عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ لو كان يعقلُ

وقدْ تقول قولاً تراهُ صوابًا ، فينقُدُهُ آخرُ بميزانِ العلْمِ الصَّحيح ، ولم تجدْ حَرَجًا من أنْ تقولَ : أخْطَأْتُ في قولي ، ومتى فعلتَ ذلك فقدْ أنْصَفْتَ نَفْسَكَ من نفْسكَ ، ولو أخَذَتْ هذه الخصلَةُ حَظَّها من النُّفوسِ لَعَمَّ الائتلافُ ، ولَقَلَّ الاختلافُ .

عن الربيع بن سليمان قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول : « ما أوردْتُ الحقَّ والحُجَّةَ على أحَد فَقَبلَها إلاَّ هِبْتُهُ ، واعتَقَدْتُ مَوَدَّتَهُ ، ولا كابرَني على الحقِّ أحَدٌ ، ودافَعَ الحُجَّةَ إلاَّ سقطَ مِنْ عَيْني » (١) .

قال الشاعر:

ولَمْ تَزَلْ قلَّةُ الإنْصافِ قَاطِعَةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ ، وَإنْ كانوا ذَوِي رَحِمِ

ومِمَّا يُعِينُ على الإنْصافِ - أيضًا - أنْ يضَعَ المرءُ نَفْسَهُ موضعَ خَصْمِه ؛ فذلك مِمَّا يدعو لالتماسِ المعاذيرِ ، والبُعْدُ عَنْ إساءَةِ الظَّنِّ ، والحَذَرِ مِنْ مواطن الظُّلْمِ والاعتساف (٢) .

قال ابن حزم - رحمه الله -: «مَنْ أرَادَ الإنصافَ فَلْيَتوهَّمْ نفْسَهُ مكانَ خَصْمِه، فإنَّه يلوحُ له وَجْهَ تَعَسُّفِه » (٣) .

وأخيرًا قال الأخ عبد الكريم العماد - حفظه الله -:

أنْصِفْ وإنْ كُنْتَ ذا جاهٍ ومرتبَةٍ ... وَعُدْ إلَى الحَقِّ مَهْمَا كُنْتَ مُقْتَدِرا

فَمَنْ تَكَبَّرَ في حقٍّ أُهِينَ بِهِ ... وَمَنْ تَوَاضَعَ في حَقٍّ فَقَدْ كَبُرَا

---

(١) « صفة الصَّفوة » (٢ / ١٦٧) .

(٢) « أخطاء في أدب المحادثة » (ص ٧٤) .

(٣) « الأخلاق والسِّير » (ص ٨٠) .

الرفْـق

أي أخي ، لا شكَّ أنَّ الرِّفْقَ من أهَمِّ الصِّفات التي يجبُ أن يتحلَّى بها المُحاور ، فليس المهمُّ توصيلَ الحقيقة للنَّاسِ ، ولكن الأهمّ هو الأُسلوب والطريقة التي تصلُ بها إلي قلوبهم ، والطَّريقة هي الرِّفق ، والرِّفق هو اللُّطْف، ومعناه الدَّفْع بالَّتي هي أحسن .

عن عائشَةَ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « إن الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شَيْءٍ إلاَّ شانهُ »(١) .

وعنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمر كُلِّه »(٢) .

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ حظَّهُ منَ الرِّفْق ، فقد أُعْطِيَ حَظَّهُ من الخَيْر ، ومَنْ حُرِمَ حَظَّهُ من الرِّفْقِ ، فقد حُرِمَ حَظَّهُ من الخَيْرِ »(٣) .

فَمَنْ أُعْطِيَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، فقد أُعطيَ الخيرَ كُلَّهُ والرَّاحةَ ، وحَسُنَ حالُهُ في دُنياهُ وآخرته ، ومن حُرِمَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، كان ذلك سبيلاً إلى كُلِّ شَرٍّ وبليَّةٍ إلاَّ مَنْ عَصَمَهُ الله (٤) .

قال الشاعرُ:

الرِّفْقُ أَيْمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتْبَعُهُ ... والخَرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يَقْدُمُ الرَّجُلا (٥)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٩٣٥) و(٦٠٢٤) و (٦٠٣) و (٦٢٥٦) و (٦٣٩٥) و (٦٤٠١) و (٦٩٢٧) ، ومسلم (٢١٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٠١٣) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/٦٠٥٥) ، والصَّحيحة (٥١٩) و (٨٧٤) .

(٤) « الحلية » (٣/١٨٦) .

(٥) يَقْدُمُ الرَّجُل : يقوده ويتقدَّمه .

وذو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إِلَى ظَفَرٍ مَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ[1] الزَّلَلا[2]

واعلمْ - أخي عَلَّمني اللهُ وإيَّاكَ - أنَّ أكْثَرَ المخالفاتِ الشَّرعيَّة ، والبدع في الدِّين ، إنَّما رسخَتْ في قُلوبِ العوامِّ بجَهْلِ بعض المحاورين ؛ أظْهَروا الحقَّ بأسلوبِ الشِّدَّة والغلْظَة ، مُلَبِّسًا الشَّيطان عليهم بدَعْوَى التَّخْطِئَة ، ودَعْوَى الضَّلال ، ودَعْوى الابتداع ، كأنَّهم لم يسمعوا قولَ الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه : ٤٤] .

وكأنَّ الرَّسول ﷺ لم يقلْ لعائشَةَ رضي الله عنها عندما قالتْ لليهود : « بَلْ عليكم السَّامُ [3] واللَّعْنَةُ» ، « يا عائشَةُ ، إنَّ اللهَ يُحبُّ الرِّفْقَ في الأمْرِ كُلِّه » [4] .

وفي روايَة لمُسلم : « يا عائشَةُ ، لا تكوني فاحشَةً » ، أو في ثالثة له : «مَهْ[5] يا عائشَةُ ؛ فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ » .

وإذا كانت الآية قدْ نَزَلَتْ في حقِّ أكْفر خَلْقِ الله ، واستحقَّ الكلمة البيِّنة ، وإذا كان الحديث وَرَدَ في حقِّ اليَهُودَ المغضوب عليهم ، واستحقُّوا الرِّفْقَ ، أفَلا يستحقُّ المُسْلمونَ من أهل البدع والانحراف هذا اللِّين والرِّفْق ؟! .

ولا يلزم من الرِّفق السُّكوت عن البدعة ، أو أنْ يُداهِنَ علَى المعصيَة ، أو أنْ يُسايرَ على الانحراف المنهجيِّ ، ولا يلزم من الحوارِ الشدَّة والغضاضة ، فالمُبْتدع إذا لم يأتِ بما يُخْرجه عن الإسلام فهو مسلم ، لهُ حقُّ الإسلامِ من الموالاة والنُّصْرَة ، والموالاة - ومنها النُّصْرَة - مُقَيَّدَةٌ بشروطٍ معروفة ، منها ألاَّ يتقوَّى بهذه الموالاة على أهْلِ السُّنَّة ، وألاَّ تكون سببًا في إعانتِه علَى بِدْعَتِه ،

---

(١) استحقَبَ الشَّيْءَ : جَعَلَهُ في حقيبته ، كأنَّه يرجع به إلَى أهْلِه .

(٢) « روضة العقلاء » (ص٢١٦) .

(٣) السَّام : الموت .

(٤) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص ٢١٤) .

(٥) مَهْ : كلمة نَهْيٍ وزَجْرٍ ، وهي اسم فعل أمر مبنيٌّ علَى السُّكون ، معناه : انكفِفْ عمَّا أنت فيه .

إلى غير ذلك .

ثُمَّ إنَّ البِدَع ليستْ عَلَى رُتْبَةٍ واحِدَةٍ ،ولكن كما يقولُ الشَّاطبيُّ - رحمه الله- : « ولقد ثَبَتَ التَّفاوتُ في المعاصي ، فكذلك يُتَصَوَّر مثله في البِدَعِ » (١)

وكما قال ابن تيميَّة : « فالتَّفكير يختلفُ بحسبِ حالِ الشَّخْصِ ، فليس كُلُّ مُخْطِئٍ ، ولا مُبْتَدِعٍ ، ولا جاهِلٍ ، ولا ضالٍ يكون كافرًا ، بل ولا فاسقًا ، بَلْ ولا عاصيًا » (٢) .

ثُمَّ إنَّ أحكام هذه المسائل ترجع إلى أهل العلم والتَّقوى ، ومذهب إمامٍ من أئمَّة السَّلَف أو قولٌ له لا يَطَّردُ على كُلِّ مُبْتَدِعٍ ، ولكن كما قال ابن تيميَّة : «وكثيرٌ من أجوبَة الإمام أحمد وغيره من الأئمَّة خرجَ عَلَى سُؤالِ سائلٍ قَدْ عُلِمَ حَالُهُ ، أو خَرَجَ خطابًا لمعيَّنٍ قدْ علم حاله ، فإنَّ أقوامًا قدْ جعلوا هذا عامًّا ، فاستعملوا من الهجرِ والإنكارِ ما لم يُؤمروا به » (٣) .

قال الشاعر :

لَو سَارَ أَلْفُ مُدَجَّجٍ (٤) في حاجةٍ ... لَمْ يَقْضِهَا إلاَّ الَّذي يَتَرَفَّقُ (٥)

وقال آخر :

لَم أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ لِلعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِها

مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا (٦)

ولكن ماذا عن الشِّدَّة ؟ ، لا شكَّ أنَّ الرِّفْقَ هو الأَصْل ، إلاَّ أنَّ الشدَّة قد

---

(١) « الاعتصام » (٢/ ٣٩) .

(٢) « الفتاوى » (١٢/ ١٨٠) .

(٣) المرجع السَّابق (٢٨/ ٢١٣) .

(٤) المُدَجَّج : الفارس الذي قد تَوَارَى بالسِّلاح مِنْ كَثْرَتِهِ .

(٥) « روضة العقلاء » (ص٥١٦) .

(٦) « حياة الحيوان » (١/ ٢٧٥) .

تُشْرَعَ عند الحاجَة إليها ، كما قيل :

فَـقَسَـا لِيَزْدَجِـروا وَمَنْ يَكُ رَاحِمًـا فَلْيَقْسُ - أحـيانًا - عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

فالشِّـدَّة - أَحْيـانًا - من الحكمة ، ولا يُوفَّقُ لمعـرفة الموقف الذي يسـتحقُّ الشِّـدَّة إلاَّ الخُلَّصُ من الرِّجال ، والمُحـاور الحكيم يسْتَخْـدِمُ الشِّدَّة إلى جـانب استخدامـه الرِّفْقَ ، وهكذا كان النَّبيُّ ﷺ فقدْ رَفَقَ بعُمَرَ بن أبي سَـلَمَةَ حينما كانت يَدُهُ تَطيشُ في الصَّحْفَة [١] ، وبمُعاوية بن الحَكَم السُّلَميِّ حينما تحَدَّثَ في الصَّلاة [٢] ، وبالأعرابيِّ الذي بالَ في المسجد [٣] ، وبالشَّابِّ الذي جاءَ يستأذنه في الزِّنى [٤] ، وبسَلَمَةَ بن صَـخْرٍ الذي أَصابَ من امرأتِه في رمـضانَ قبْلَ أَداءِ كفَّارته [٥] .

واستخْـدَمَ الشِّدَّة مع مَنْ تَخَتَّمَ بالذَّهَب [٦] ، ومع الصَّحابَة الَّذين مَـسَحوا الأَرْجُلَ أثناءَ الوُضُـوء [٧] ، ومع الإمام الذي أطـال بالصَّلاة [٨] ، ومَعَ أبي ذَرٍّ حينمـا سبَّ غُلامَهُ [٩] ،ومعَ عمرَ حـينما سمعـه يَحلفُ بأبيه [١٠] ، وكان من أسبـاب هذا التَّنوُّع مُراعاةُ أحْـوال المُخاطَبينَ ، فاستَـعْمَلَ عليه الصَّـلاة والسَّلام الرِّفقَ بالجَاهِلِ الذي لم يكُنْ يعـرفُ حُكْمَ الشَّرعِ لِصِغَرِ سنِّه ، أو حـديثِ عَهْدِه

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٧) و (٥٣٧٨) ، ومسلمٌ (٢٠٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

(٣) أخرجـه البخـاريُّ (٢٢٠) و (٦١٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه و (٢١٩) و (٦٠٢٥) عن أنسٍ رضي الله عنه ، ومسلم (٢٨٤) و (٢٨٥) عن أنسٍ .

(٤) تقدَّم تخريجة في حاشية (ص١٩٨) .

(٥) أخرَجَهُ أبو داود (٢٢١٣) ، والترمذيُّ (٣٢٩٩) ، انظر صحيح سنن التِّرمذيِّ للألبانيِّ (١/ ٥٣٢) .

(٦) أخرجه البخاريُّ (١/ ١٨٩) .

(٧) أخرجه البخاريُّ (٦٠) و (٩٦) و (١٦٣) ، ومسلم (٢٤١) عن ابن عَمْرو .

(٨) أخـرجه الـبخـاريُّ (٩٠) و (٧٠٢) و (٧٠٤) و (٦١١) و (٧١٥٩) ، ومـسلم (٤٦٦) عن أبي مسعود الأنصاريِّ .

(٩) أخرجهُ البخاريُّ (٣٠) و (٢٤٥) و (٦٠٥٠) ، ومسلم (١٦٦١) .

(١٠) أخرجه البخاريُّ (٦١٠٨) و (٦٦٤٦) ، ومسلم (١٦٤٦) عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما .

بالإسلام ، واستخدَمَ الشدَّةَ مع مَنْ صَدَرَ منهم ما لا يُتَوقَّعُ منهم ذلك لطولِ صُحْبَتِهم له ، ولعلمهم وورَعِهِم وتَقْواهُم ، واللهُ تعالى أعلم بالصَّوابِ [١] .

وأخيراً قال أبو الفتح البُستي:

ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأُمورِ ، فَلَمْ ... يَنْدَمْ رَفيقٌ ، ولم يَذْمُمْهُ إنْسانُ

ولا يَغُرَّنَّكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ ... فالخَرْقُ هَدْمٌ ورِفْقُ المَرْءِ بُنْيانُ [٢]

(١) انظر « مراعاة أحوال المخاطبين » (ص٨٦) .

(٢) « جواهر الأدب » (ص٦٧١) .

الحِلْم

أي أخي ، هناك ارتباطٌ مُؤَكَّدٌ بينَ ثقَة المحاور بنفسه وصدْق مذْهَبه وبينَ حلمه مع الآخرين ، فمتى كان كذلك اتَّسَعَ صدْره ، وامتدَّ حلمُهُ ، وعَذَرَ النَّاس من أنفسهم ، والتَمَسَ المُبَرِّرات لأغلاطهم ، فإذا عَدَا عليه غرٌّ يُريدُ تجريحه ، ولَمْ يُقابلْ السَّيِّئَة بمثلها ، بَلْ بأَحْسَن منها ، يفيضُ من حِلْمِه على ذوي النَّزَق [1] والطَّيْش ، فيُطْلقونَ أَلسنَتَهم بالدُّعاء والثَّناء ، هذا حكم الله .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤] .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « الواجبُ على العاقلِ تَوْطِينُ النَّفْسِ على لزُومِ العَفْوِ عن النَّاسِ كافَّةً ، وتَرْكُ الخروج لمجازاة الإساءَة ؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءَة أحسنُ من الإحسانِ ، ولا سَبَب لنماءِ الإساءَة وتهييجها أشَدُّ من الاستعمالِ بمثلِهَا » [2] .

وقال ايضا : « النَّاسُ على ضُرُوبٍ ثلاثة : رجلٌ أعزُّ منك ، ورجلٌ أنتَ أعزُّ منه ، ورجلٌ ساواك في العزِّ ، فالتَّجاهل عَلَى مَنْ أَنْتَ أَعَزُّ منه لُؤْمٌ ، وعلى مَنْ هو أَعزُّ منك جنفٌ ، وعلى مَنْ هوَ مِثْلُكَ هراشٌ كهراشِ الكَلْبَيْن ، ونقارٌ منقارِ الدِّيكَيْنِ ، ولا يفترقان إلاَّ عَنِ الخَدْشِ والعَقْر والهُجْر ، ولا يكادُ يوجدُ التَّجاهلُ وتَرْكُ التَّحالم إلاَّ مِّنْ سَفيهيْن ، ولقد أحْسَنَ الذي يقول :

ما تَمَّ حِلْمٌ ولا علْمٌ بلا أدَبٍ ... ولا تَجَاهَلَ في قَوْمٍ حَلِيمان

ومَا التَّجاهُلُ إلاَّ ثَوْبُ ذِي دَنَسٍ ... ولَيْسَ يَلْبَسُهُ إلاَّ سَفِيهَان » [3]

---

(١) **النَّزَق** : السَّفَه والطَّيْش .

(٢) « روضة العقلاء »(ص ١٦٦) .

(٣) المرجع السَّابق(ص٢١٢) .

فكن - أخي - كما قال منصور بن محمد الكريزي:

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلاَّ وَاحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الحَقَّ ، والحَقُّ لازِمُ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لامَ لائِمُ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَو هَفَا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ الحِلْمَ لِلفَضْلِ حَاكِمُ[1]

وقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ العَفْوَ عن المسيئ ، والإحْسانَ إليه مع القُدرة عليه موجبٌ للذِّلَّة والمهانَة، وأنَّه قد يجرُّ إلى تَطاول السُّفَهَاء، وهذا خطأ ؛ لأنَّ الحِلْمَ والعَفْوَ لا يشتبه بالذِّلَّة بحال، فإنَّ الذِّلَّة احتمالُ الأذى على وجه يُذْهبُ بالكرامة، أمَّا الحِلْمُ فهو إغْضاءُ الرَّجُلِ عن المكروه ، حيثُ يزيدهُ الإغضاءُ في أعيُنِ النَّاسِ رِفْعَةً ومهابَةً .

قال كعب الغنوي:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العَدُوِّ مَهِيبُ
إِذا مَا تراآه الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا ... فَلَمْ يَنْطِقِ العوراء[2] وهو قريبُ[3]

فالعفو إسقاطُ حَقِّكَ جَودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقامِ ، فتُؤثِّر التَّرْكَ رغبَةً في الإحسانِ ، ومكارمِ الأخْلاقِ ، بِخلافِ الذُّلِّ فإنَّ صاحبه يترك الانتقامَ عَجْزًا وخوفًا ومهانةَ نفسٍ ، فهذا غير محمودٍ ، لعلَّ المنتقم أحسَنُ حالاً منه[4] .

---

(١) المرجع السَّابق (ص١٦٦) .
(٢) العَوْراء : الكلمة القبيحة .
(٣) « الحلم » (ص ٦٠) .
(٤) « مدارج السَّالكين » (٢/ ٣٢٨)

قال الشاعر:

لا يَبْلُغُ المَجْـدَ أَقْـوامٌ وَإِنْ كَـرُمُـوا ... حَـتَّى يَذِلُّوا - وإِنْ عَزُّوا - لأقـوامِ
وَيُشْـتَمُـوا فَتَـرَى الألوانَ مـسفـرةً ... لا صَـفح ذُلٌّ ولكنْ صَـفْحُ أَحْـلامِ

والحلم أقلُّ كُلْفَـةً ، وأيسرُ مـؤنَةً ، فما أجْـمَله لك تاجًا ! ، فـإنْ لم تكنْ حليمًا فتحلَّمْ ، حتَّى يُصبحَ ذلك فيك سجيَّةً وخُلُقًا ، فقد قال حبيبُكَ ﷺ : « إنَّما العلمُ بالتَّعلُّمِ ، وإنَّما الحلْمُ بالتَّحلُّمِ » (١) .

وقال ﷺ للأَشَجِّ بن عَبْدِ القَيْسِ : « إنَّ فيك لَخُلُقَيْن يُحبُّهما اللهُ : الحلْمُ والأناةُ » ، قال : « يا رسـول الله ، أهما خُلُقان تَخَلَّقتُ بهمـا ، أم جَبَلَني اللهُ عليهما ؟» ، قال : « بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عليـهما » فقال : « الحَـمْدُ لله الذي جَبَلَني علَى خُلُقَيْنِ يُحبُّهما اللهُ ورسولُهُ » (٢) .

قال الكريزي:

إذا أَنَا كـافـيتُ الجَـهُـولَ بِفِـعْلِه ... فَـهَلْ أنا إلاَّ مِـثْلُهُ إذْ أُحَـاوِرُهْ ؟
وَلَكِنْ إذا مَـا طاشَ بالجَـهْلِ طائِشٌ ... عَلَيَّ ، فَـإِنِّي بالتَّـحَلُّـمِ قـاهِرُهْ (٣)

وقدْ بَلَغَ الرَّسولُ ﷺ في حِلْمِهِ وعَفْوِهِ الغايةَ المثاليَّة ، فعلى جادَّة المثالِ :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كُنْتُ أَمْشي مع النَّبيِّ ﷺ وعليه بُرْدٌ (٤) نَجْراني غليظُ الحاشيةِ ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجَبَذَهُ (٥) بردائِه جَبْذَةً شديدةً ، حتَّى

---

(١) تقدَّم تخريجه .
(٢) أخـرجه أبو داود (٥٢٢٥) ، وأحْـمَد (٤/ ٢٠٦) ، واخـرجَ شَطْره الأوَّل مـسلم (١٧) والتِّرمـذيُّ (٢٠١١) عن ابن عباس .
(٣) « روضة العقلاء » (ص ٢١٠) .
(٣) البُرْدُ : كساءٌ مُخطَّطٌ يُلْتَحَفُ بِهِ ، جمعه بُرُودٌ .
(٥) الجَبْذَة : الجَذْبة .

نظرتُ إلى صَفْحة (١) عاتقِ(٢) رسول الله ﷺ قدْ أثَّرتْ بها حاشيةُ البُرْدِ مِنْ شدَّة جَبْذَتِه ، ثمَّ قال : يا محمَّدُ ، مُرْ لي مِن مالِ الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسولُ الله ﷺ ، ثُمَّ ضحكَ ، ثُمَّ أمرَ له بعطاءٍ » (٣) .

قال ابن حجر - رحمه الله - معلقًا على هذا الحديث : « وهذا من روائعِ حِلْمِه ﷺ وكمالِه ، وحُسْنِ خُلُقِه ، وصَفْحِه الجميل ، وصبرِه على الأذى في النَّفْسِ والمالِ ، والتَّجاوزِ على جفاء مَنْ يُريدُ تألُّفه على الإسلامِ ، وليتأسَّى به الدُّعاة إلى الله والوُلاةُ بَعْدَهُ في حلمه ، وخُلُقِه الجميل من الصَّفْحِ والإصغاء ، والعَفْو ، والدَّفْع بالَّتي هي أحسنُ » (٤) .

وقد كان لأئمَّة السَّلَفِ عقولٌ راجحةٌ ، وحكمةٌ بالغةٌ ، زَادَها القرآنُ نورًا على نورها ، فكانوا غيظَ العدوِّ ، وقوامَ الأمر .

دخل رجلٌ على عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

« هِيْ (٥) يا بْنَ الخطَّاب ، فوالله ما تُعطينا الجَزْلَ (٦) ، ولا تحكمُ بيننا بالعَدْلِ » ، فغضبَ عمرُ رضي الله عنه حتَّى همَّ به ، فقال له الحُرُّ بْنُ قَيْسٍ : « يا أمير المؤمنين ، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ { الأعراف : ١٩٩ } ، وإنَّ هذا من الجاهلين » ، فما جاوزها عمرُ حين تلاها ، وكان وقَّافًا عند كتاب الله (٧) .

---

(١) **الصَّفحة** : الجانب .
(٢) **العاتق** : ما بين العُنُقِ والكتف .
(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٤٩) و (٥٨٠٩) و (٦٠٨٨) ، ومسلم (١٠٥٧) .
(٤) الفتح (١٠/ ٥٦) ، وشرح النَّوويِّ على مسلم (٧/ ١٤٦-١٤٧) .
(٥) **هِيْ** : كلمة تنبيه ، وتحمل معنى التَّهديد .
(٦) **الجَزْل** : الشَّيء الكثير .
(٧) أخرجه البخاريُّ (٤٦٤٢) و (٧٢٨٦) عن ابن عبَّاسٍ .

قال الشاعر:

أُولَئِكَ قَـوْمٌ إِنْ بَنَوا أَحْسَنُوا البِنا ... وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوا وإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتِ النَّعْمَاءُ فيهم جَزَوْا بها ... وَإِنْ أَنْعَمُوا لا كَدَّروها ولا كَدُّوا
وَإِنْ قَالَ مَوْلاَهُمْ عَلى جَلِّ حادِثٍ ... مِنَ الأَمْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أحلامِكُمْ رَدُّوا[1]

والحلم من أشرَفِ الأخلاقِ ، وأحَقُّها بذوي الألباب ، فمتى ما أعرَضَ المحاور عن الجاهلِ ، فقدْ حفظَ على نفسِهِ عزَّتها ، ونأى بها عن المهاترات والإقذاع .

قال الشافعيّ - رحمه الله -:

إِذَا سَبَّنِي نَذْلٌ تَزَايَدْتُ رِفْعَةً ... ومَا العَيْبُ إلاَّ أَنْ أكونَ مُسَابِبُهْ
وَلَو لَمْ تَكُنْ نَفْسي عَلَيَّ عزيزةً ... لَمَكَّنْتُها مِنْ كُلِّ نَذْلٍ تُحَارِبُهْ[2]

والعرب تقول: « إنَّ مِن ابْتِغاءِ الخَيْرِ اتِّقاءَ الشَّرِّ »[3] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً نال من عمر بن عبد العزيز ، فلمْ يُجبْهُ ، فقيل له : « ما يَمْنَعُكَ منه ؟! » ، فقال : « التقى ملجم »[4] .

وأكْثَرَ رجلٌ من سَبِّ الأحنف وهو لا يُجيبُهُ ، فقال - يعني السَّابَّ - : «والله ، ما منعه من جوابي إلاَّ هواني عليه »[5] .

قال الشاعر:

رَجَعْتُ عَلَى السَّفيهِ بِفَضْلِ حِلْمٍ ... وَكَانَ الحِلْمُ عَنْهُ لَهُ لِجاما[6]

---

(١) « الحلم » (ص٥٦) .
(٢) « ديوان الشَّافعيّ » (ص٢٩) تحقيق البقاعيّ .
(٣) « الأمثال » (ص١٥٩) .
(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤) .
(٥) « أدب الدنيا والدين » (ص٢٥٣) .
(٦) اللِّجام : ما يُلْجَمُ به الفرس في فمه .

وَظَنَّ بيَ السَّفاهَ فَلَمْ يَجِدْني ... أُسَافِهُهُ ، وقُلْتُ لَهُ سَلاما
فَقامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلاً ... وَقَدْ كَسَبَ المَذَمَّةَ والملاما
وَفَضْلُ الحِلْمِ أَبْلَغُ في سَفِيهٍ ... وَأَحْرَى أَنْ يُنَالَ بِهِ انتقاما (١)

وعن عبد الملك - أو قيس بن عبد الملك - قال : « قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلَته ، وعرض له رجلٌ بيده طومار (٢) ، فظنَّ القومُ أنَّه يريدُ أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبسَ دونَهُ ، فرماهُ بالطومارِ ، فالتفت عمرُ ، فوقَعَ في وجْهِهِ فشجَّهُ » ، قال : « فنظَرْتُ إلى الدِّماء تسيلُ من وجهه وهو قائمٌ إلى الشَّمْسِ ، فلم يبرح حتَّى قرأ الطومار ، وأمرَ له بحاجته ، وخلَّى سبيلَهُ » (٣) .

وأسمع رجلٌ ابْنَ هبيرةَ ، فأعرضَ عنه ، فقال : « إيَّاكَ أَعْني » ، فقال : «وَعَنْكَ أُعْرِضُ » (٤) .

قال الشاعر :

أَوَ كُلَّمَا طَنَّ الذُّبابُ طَرَدْتُهُ ؟! ... إنَّ الذُّبابَ - إذًا - عَلَيَّ كَرِيمُ (٥)

على أنَّ هُناكَ حالات يكون فيها الجَهْلُ من الحِلمِ ، كما قال ابن حبَّان - رحمه **الله** - : « وربَّما يُدْفع العاقلُ إلى الوقت بعد الوقت إلى مَنْ لا يُرضيه عنه الحِلْمُ ، ولا يُقْنعه عن الصَّفْحُ ، فحينئذٍ يحتاجُ إلى سفيهٍ ينتصرُ له ؛ لأنَّ ترك الحِلْمِ في بعضِ الأوقاتِ من الحِلْمِ » (٦) .

---

(١) « الحلم » (ص٣٤) .
(٢) **الطومار** : صحيفة مطويَّة .
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٣) .
(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (٢/ ٤٣٦) .
(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٥٣) .
(٦) « روضة العقلاء » (ص٢١٣) .

قال الشاعر:

إذَا كُنْتَ بينَ الحلْمِ والجَهْلِ قاعِدًا ... وَخُيِّرْتَ أَنَّى شِئْتَ ، فالحلْمُ أفضَلُ
ولَكِنْ إذا أنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفًا ... ولَمْ يَرْضَ مِنْكَ الحِلْمَ فالجَهْلُ أفضلُ (١)

ولم يُنكر الرَّسولُ ﷺ على النَّابغَة الجَعْديِّ حينما أنشدَ بحضرته :

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لَمْ تكنْ لَهُ ... بَوَادِرُ (٢) تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرا
ولا خَيرَ في جَهْلٍ إذا لمْ يكنْ لَهُ ... حليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرَ أَصْدَرَا(٣)

ومن الحالات التي ينبغي فيها الغضب ، ولا يشرع فيها الحلْم عند انتهاك حُرْمة الله ، والاعتداء على شرعه ، ويدلُّ عليه قولُ عائشةَ رضي الله عنها : « ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلاَّ أخَذَ أيسرهما ، ما لم يكنْ إثْمًا ، فإنْ كان إثمًا كانَ أبعدَ النَّاسِ منه ، وما انتقَمَ رسولُ الله ﷺ لنفسِه ، إلاَّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ ، فينتقمُ للهِ بها » (٤) .

وفي روايةٍ : « فإن انتهكتْ حُرْمَةُ الله ، كان أشدَّ النَّاسِ غضبًا لله » (٥) .

ومن اللَّطائف في هذا البابِ حوارُ مَعْنِ بن زائدَةَ (٦) مع بعض الشُّعراء غاية في الحلم ، فقد كان معْنٌ لا يُغيظ أحدًا ، ولا أحدًا يُغيظُهُ ، فقال بعضُ الشُّعراء: أنا أغيظُهُ لكم ، ولو كانَ قلبُهُ من صَخْرٍ ، فراهنوه على مئة بعيرٍ، إنْ أغاظَهُ أخذها ،وإنْ لم يُغظْهُ دَفَعَ مِثْلَها ، فعمدَ الرَّجُلُ إلى جملٍ ، فذبحهُ وسلَخَهُ ، ولبس الجِلْدَ مِثْلَ الثَّوْبِ ، وجَعَلَ اللَّحْمَ من خارج ، والشَّعْرَ من

---

(١) المرجع السابق .
(٢) بَوادر : جمع بادرة ، وهي الحدَّة عند الغضب .
(٣) « البداية والنهاية » (٦/ ٥٦٠، ٥٦١) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلمٌ (٧٨) .
(٥) الرِّواية ذكرها الحافظ في الفتح ، وسكتَ عنها (٦/ ٥٧٦) .
(٦) هو أبو الوليد مَعْنُ بْنُ زائدةَ ، كان جَوَادًا شُجَاعًا ، حليمًا جزيلَ العطاء ، عاشَ في دولتي بني أميَّة وبني العبَّاس ، ثمَّ قتله قومٌ من الخوارج سنة (١٥١هـ) .

داخلٍ ، والذُّباب يقعُ عَليه ويقوم ، ولبسَ برجليه نَعْلَيْن من جِلْد الجَمَل ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ مَعْنٍ عَلَى هذه الصُّورة ، ومدَّ رجليه في وجْهه ، وقال :

أنا - والله - لا أُبدي سلامًا ... عَلَى مَعْنٍ المُسَمَّى بالأميرِ

فقال له مَعْنٌ : السَّلامُ لله ، إنْ سَلَّمْتَ رَدَدْنا عليك ، وإن لم تُسلِّمْ فما عتبنا عليك . فقال :

سَأَرْحَلُ عن بلادٍ أنْتَ فيها ... ولو حزْتَ الشَّآمَ مَعَ الثُّغُور

فقال له مَعْنٌ : البلادُ بلادُ الله ، إنْ نَزَلْتَ فمرحبًا بك ، وإنْ رَحَلْتَ كان اللهُ في عَوْنِكَ . فقال :

وأَرْحَلُ من بلادٍ ألفَ شَهْرٍ ... أجِدُ السَّيْرَ في أعْلى القُفُورِ (١)

فقال له : مصْحوبًا بالسَّلامَة . فقال :

أَتَذْكُرُ إِذْ قميصُك جِلْدُ شَاةٍ ... وَإِذْ نَعْلاكَ مِنْ جِلْدِ البَعِيرِ ؟!

فقال معْنٌ : أعرفُ ذلك ولا أُنكره . فقال :

وتَهْوَى كُلَّ مصطبَةٍ وسُوقٍ ... بلا عَبْدٍ لَدَيْكَ ولا وَزِيرِ

فقال له مَعْنٌ : ما نسيتُ ذلك يا أخا العرب . فقال :

ونَومُكَ في الشِّتاءِ بلا رِدَاءٍ ... وأَكْلُكَ -دائمًا - خُبْزَ الشَّعِيرِ

فقال له مَعْنٌ : الحمدُ لله على كُلِّ حالٍ . فقال :

وفي يُمناكَ عُكَّازٌ (٢) قَوِيٌّ ... تَذُودُ به الكِلابَ عَنِ الهَرِيرِ

فقال مَعْنٌ : ما خَفِيَ عليك خبرها ، إذ هي كعصا موسى . فقال :

فَسُبْحانَ الَّذي أعْطَاكَ مُلْكًا ... وَعَلَّمَكَ القُعُودَ عَلَى السَّرِيرِ

---

(١) القُفُور : جمع قَفْرٍ ، وهي الأرضُ التي لا ماء فيها ولا عشب ، ولا بشَرَ ، ويجمع - أيضًا - على قِفار.

(٢) العُكَّاز : عصا في طَرَفِها زجٌّ .

فقال مَعْنٌ : ذلك بفضلِ الله لا بفضلك . فقال :

فَـعَـجِّلْ يا بْـنَ ناقِـصَـةٍ بمالٍ ... فَـإِنِّي قَـدْ عَـزَمْتُ عَلَى المسـيرِ

فأمرَ له بألف دينارٍ ، فقال :

قَلِيلٌ مَـا أَمَـرْتَ بِهِ ، فـإِنِّي ... لأَطْمَعُ مِـنْكَ بالشَّـيْءِ الكثـيـرِ

فأمرَ له بألف دينارٍ أخرى ، فقال :

فَـثَلِّثْ إِذْ مَلَـكْتَ المُلْكَ رِزْقًـا ... بلا عَـقْلٍ ، ولا جـاهٍ خَطِـيـرِ

فأمر له بثلاثمائة دينارٍ ، فقال :

ولا أَدَبٍ كَـسَـبْتَ بِهِ المعـالِيَ ... ولا خُـلُقٍ ولا رَأْيٍ مُـنيـرِ

فأمر له بأربعمائة دينارٍ ، فقال :

فَـمِنْكَ الجُـودُ والأفـضـالُ حـقّـاً ... وَفَـيْضُ يَدَيْكَ كـالـبَـحْـرِ الغَـزِيرِ

وما زال يطلبُ الزيادة حتَّى أخذَ مـا قُدِّرَ له ، وانصرفَ مُـتَعَجِّبًا من حلْمِ مَعْنٍ ، وعـدم انتقامـه منه ، ثمَّ قال لنفسـه : مثْلُ هذا لا ينبـغي أن يُهْجَى بَلْ يُمْدَحَ ، واغتسَلَ ولبسَ ثيابه ، ورَجَعَ إليه ، فسلَّمَ عليه ومدحَهُ ، واعتذَرَ له بأنَّ الحامل له على هَجْوه المئةُ بعيرٍ التي صارَ الرَّهْنُ عليـها نظيرَ إغاظته له ، فأمر له بمئة بعيرٍ يدفعها نظيرَ الرَّهْنِ ، وبمئةِ بعيرٍ أخرى لنفسِه ، فأخذَها وانصرفَ [1] .

وأخيرًا قال الشاعرُ :

العِـلْمُ والحِلْـمُ حُلَّـتَـا كَـرَمٍ ... للمـرْءِ زَيْـنٌ إِذَا هما اجْـتَـمَـعَـا

كَمْ مِنْ وَضِـيعٍ سَـمَـا بِهِ الـعِلْـ ... ـمُ والحِلْمُ ، فَنَالَ السُّـمُـوَّ وارْتَفَـعَـا

صِنْوانِ لا يَسْـتَـتِمُّ حُـسْـنُهُـمَـا ... إِلاَّ بَجَـمْـعٍ لِذَا وذَاكَ مَـعَـا [2]

---

(١) « بهجة المجالس » للأثريِّ (ص١٨٣) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/١٢٦) .

الأَنَاةُ

الأَنَاةُ هي مَظْهَرٌ من مظاهرِ خُلُق الصَّبْرِ ، وهي صفةٌ من صفاتِ المحاور الحكيم صاحب العقل والرَّزانَة ، بخلاف العَجَلَة فهي من صفاتِ المحاور الفاشل صاحب الطَّيشِ والرُّعونَة ، الذي لا يملك الإرادة القويَّة على ضبط نفسه تُجاهَ انفعالاته العجولة ، ولسُمُوِّ الأناة أحبَّها اللهُ عزَّ وجلَّ ، فقدْ قالَ رسولُ الله ﷺ للأشَجِّ : « إنَّ فيك لَخُلُقَيْنِ يُحبُّهما اللهُ : الحِلْمُ ، والأَنَاةُ » (١) .

فعلى المحاورِ أن يتريَّث ويتأنَّى قَبْلَ أيِّ حوارٍ ؛ لأنَّ ذلك أَدْعَى لِصفاءِ القَريحة ، فلا خيرَ في الرَّأْي الفطير ولا الكلام القَضيب (٢) ، والعرب تقول : « الخطأُ زادُ العَجُولِ » (٣) ، ونجاحُ أيِّ حوارٍ مرهونٌ بالأناةِ ، ودوامِ النَّظَرِ في عواقبِ الأمورِ .

قال ابنُ حبَّان - رحمه الله - : « الرَّافقُ لا يكادُ يُسْبَقُ ، كما أنَّ العَجِلَ لا يكادُ يَلْحَقُ ، وكما أنَّ مَنْ سكتَ لا يكادُ يَنْدَمُ ، كذلك مَنْ نَطَقَ لا يكادُ يَسْلَمُ ، والعَجِلُ يقول قَبْلَ أنْ يَعْلَمَ ، ويُجيبُ قبلَ أنْ يَفْهَمَ ، ويَحْمَدُ قَبْلَ أنْ يُجَرِّبَ ، ويذمُّ بعدما يَحْمَدُ ، يَعْزِمُ قبلَ أنْ يُفكِّرَ ، ويمضي قبلَ أنْ يعزمَ ، والعَجِلُ تَصْحَبُهُ النَّدامَةُ ، وتعتزلُهُ السَّلامة ، وكانت العربُ تُكَنِّي العَجَلَةَ أمَّ النَّدامات » (٤) .

قال الشاعرُ :

الرِّفْقُ يُمْنٌ (٥) والأناةُ سَعَادَةٌ ... فَتَأَنَّ في أَمْرٍ تُلاقِ نجاحا (٦)

---

(١) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص٢٢١) .

(٢) **الرأي الفطير**: هو الَّذي لا ينضج والكلام القضيب : هو المُرتَجَلُ. انظر «زهرة الأدب» (١/ ١٥٤) .

« مجمع الأمثال » (١/ ١٣١) .

(٤) « روضة العقلاء » (ص٢١٦) .

(٥) **اليُمْنُ** : البَرَكَةُ .

(٦) « تاريخ بغداد » وتهذيب ابن عساكر » (٥/ ٤٣٥) .

وقال ابن المقفع: « إنَّ كلامَ العَجَلَة والبَدَارِ موكَّلٌ به الزَّلَلُ ، وسوءُ التَّقْديرُ ، وإنْ ظَنَّ صاحبُهُ أنْ قدْ أتْقَنَ وأحْكَمَ ، واعلمْ أنَّ هذه الأمور لا تُدْرَكُ ، ولا تُمْلَكُ إلاَّ برَحْبِ الذِّراعِ [١] عندَ ما قيلَ وما لَمْ يُقَلْ ، وقلَّة الإعظَامِ لما ظَهَرَ من المروءَة ، وما لم يظهَرْ ، وسَخَاوَةُ النَّفْسِ عن كثيرٍ من الصَّوابِ مخافَةَ الخِلافِ والعَجَلَة » [٢] .

وقال الزمخشري: « خَيْرُ الألسُنِ المخزونُ ، وخيرُ الكلامِ الموزونُ ، فَحَدِّثْ - إنْ حَدَّثْتَ - بأفْضَلِ من الصَّمْتِ ، وزَيِّنْ حديثك بالوَقار وحُسْنِ السَّمْت ، إنَّ الطَّيْشَ في الكلامِ يُتَرْجَمُ عن خفَّةِ الأحلامِ ، وما دَخَلَ الرِّفقُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ وما زَانَ المتكلِّمَ إلاَّ الرَّزانَةُ » [٣] .

قال الشاعر يمدح محاورًا عاقلاً:

بصيرٌ بأعْقابِ الأمورِ ، كأنَّما ... يُخاطِبُهُ في كُلِّ أمْرٍ عَواقِبُه

وقال ابن هاني المغربي:

وكُلُّ أنَاةٍ في المَواطنِ سُؤْدَدٌ ... ولا كَأنَاةٍ منْ قَديرٍ مُحْكِمِ
وَمَنْ يَتَبَيَّنْ أنَّ للصَّفْحِ مَوْضِعًا ... منَ السَّيْفِ يَصْفَحْ عَنْ كَثيرٍ ويَحْلُمِ
ومَا الرَّأْيُ إلاَّ بَعْدَ طُولِ تَثَبُّتٍ ... ولا الحَزْمُ إلاَّ بَعْدَ طُولِ تَلَوُّمِ

---

(١) رَحْبُ الذِّراعِ : سَعَةُ العِلْم ، وسعة الأفُق ، وقوَّة التَّبصُّر .
(٢) « الأدَب الصغير والكبير » (ص١٢٢-١٢٣) .
(٣) « أطْواق الذَّهب » (ص٧٩) .

التَّغابي

أي أخي ، ما أجْمَلَ أنْ يتَغَابى ويتغافَل المحاور عنْ هَفْوَةٍ ، أو سَقْطَةٍ ، أو زَلَّةٍ صدرَتْ من محاوره ؛ فالتَّغابي والتغافلُ من أخلاقِ عظماءِ الرِّجالِ .

قال الطائي :

ليس الغَبِيُّ بسيِّدٍ في قَوْمِهِ ... لكنَّ سيِّدَ قومِهِ المُتَغابي (١)

وقال ابن الرُّومي :

يتغابى لهم ، وليسَ لمُوقٍ (٢) ... بَلْ لِلُبٍّ يَفُوقُ لُبَّ اللَّبيبِ

قال ابن المُقفَّع : « إنَّ مِنْ أَرَبِ الأَريب دَفْنَ أَرَبِهِ ما استطاع ، حتَّى يُعْرَفَ بالمسامَحَةِ في الخليقة ، والاستقامَةِ على الطَّريقة » .

ومن التَّغافُلِ ألاَّ تُعاتب مَن استربت (٣) بصِدْقِهِ ، وصِدْقِ مودَّته ، كما قال منصور النَّمريُّ :

أَقْلِلْ عِتَابَ مَن اسْتَرَبْتَ بِوُدِّهِ ... لَيسَتْ تُنَالُ مَوَدَّةٌ بِعِتَابِ (٤)

والعتابُ يُحرِّك من محاورك ما سكَنَ ، لكنَّه - مع ذلك - خيرٌ من الحِقْد .

قال الأحنف بن قيس - رحمه الله - : « العتابُ مِفتاحُ التَّعالي ، والعِتابُ خيرٌ من الحِقْد » (٥) .

فإذا كنتَ على ثقةٍ من محاورك ، واضطررت إلى عتابِهِ ، فعاتبْهُ عتابًا لطيفًا والتمسْ له عذرًا وسترًا بين يدي عتابك .

---

(١) « أدب الدُّنيا والدين » (ص ٢١٦) .
(٢) المُوق : الحُمْقُ في غباوة .
(٣) استربْتَ : داخَلَتْكَ الرِّيبَةُ .
(٤) « رسائل الإصلاح » (٢/ ١٥) .
(٥) « السِّير » (٤/ ٩٤) .

قال الشاعر:

أُعاتِبُ ذا المودَّةِ مِنْ صديقٍ ... إذَا ما رَابَني [1] منه اغترابُ
إذَا ذَهَبَ العتابُ فَلَيْسَ وُدٌّ ... ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتابُ [2]

وقَدْ تَجِدُ في نفْسِ محاورك ما يدعوه إلى عتابك ، فتمنَحه جبينًا طلقًا ، فيذهب ما في نفسِه عليك .

قال الشاعر:

أَزُورُ محمَّدًا وإذا الْتَقَيْنا ... تكَلَّمتِ الضَّمائرُ في الصُّدُورِ
فأرجِعُ لم أُلُمْهُ ، ولم يَلُمْني ... وقَدْ رَضِيَ الضَّميرُ عَنِ الضَّميرِ [3]

ومن التَّغافُلِ قَبُولُ عُذْرِ مَنْ يأتيكَ مُعْتَذِرًا ، فَقَبُول الأعذارِ من صِفاتِ المحاور الكريم ، حتَّى ولو كان المعتذرُ كاذبًا .

قال ابنُ حبان - رحمه الله -: « لا يجبُ للمرءِ أنْ يُعْلِنَ عقوبة مَنْ لَمْ يُعْلِن ذنبه ، ولا يخلو المعتذر في اعتذارِه من أحد رَجُلَيْن : إمَّا أنْ يكونَ صادقًا في اعتذارِه ، أو كاذبًا ، فإنْ كان صادقًا فقد استحقَّ العَفْوَ ؛ لأنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْ لم يُقِلْ العَثَرَاتِ ، ولا يستُر الزلاَّت، وإنْ كانَ كاذبًا فالواجبُ على المرء - إذا علم من المعتذرِ إثم الكذب وريبته ، وخضوع الاعتذار ، وذلَّته - ألاَّ يُعاقبه على الذَّنبِ السَّالفِ ، بَلْ يشكرُ له الإحسانُ المحدَث الذي جاء به في اعتذارِه ، وليس يَعيبُ المعتذر إن ذلَّ وخَضَعَ في اعتذارِه إلى أخيه » [4] .

وقالَ ابنُ المبارك - رحمه الله -: « المؤمنُ طالبٌ عُذْرَ إخوانِه ، والمنافقُ طالبٌ

---

(١) رَابَهُ الشَّيْءُ : رأى منه ما يكره ، ويقلق له .
(٢) « بهجة المجالس » (٤/ ٧٣٨) .
(٣) « عيون الأخبار » (٣/ ٢٦) .
(٤) « روضة العقلاء » (ص١٨٤-١٨٥) .

عَثَرَاتِهِمْ » (١) .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله - :

اقبَلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ مُعْتَذِرًا ... إنْ بَرَّ(٢) عندكَ فيما قال أو فَجَرا (٣)

لَقَدْ أطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أجلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرا (٤)

ومن التَّغافُلِ عَدَمُ المؤاخَذَةِ بالزَّلَّةِ ، فعلى المحاور العاقلُ ألاَّ يزهدُ في محاورِه بسبب هَفْوَةٍ ، ولا سيَّمَا إذا كانت يسيرةً ، أو مِنْ شَخْصٍ له فَضْلٌ ، كما قيلَ :

وَإذا الحَبيبُ أتَى بذنبٍ واحِدٍ ... جَاءَتْ محاسنُهُ بألْفِ شَفِيعِ (٥)

وبعضُ المحاورينَ إذا رأى من محاوره زلَّةً زَهِدَ فيه ، وهذا خَطَأٌ ؛ فَمَنْ الَّذي ما سَاءَ قَطُّ ؟! .

قال بشَّارُ بن بُرْدٍ :

إذَا أنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا عَلَى القَذَى(٦) ... ظَمِئْتَ وَأيُّ النَّاس تَصْفُو مَشَارِبُهْ ؟!

وَمَنْ ذا الَّذي تُرْضَى سَجَايَاهُ (٧) كُلُّها؟ ... كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ (٨)

وقال النَّابغة الذُّبيانيُّ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ (٩) ... عَلَى شَعْثٍ(١٠) أيُّ الرِّجال المُهَذَّبِ؟(١١)

---

(١) « آداب العشرة »(ص٤٣) .

(٢) بَرَّ : صَدَقَ .

(٣) فَجَرَ : كذب .

(٤) « ديوان الشَّافعيِّ »(ص٦٠) تحقيق البقاعي .

(٥) « مفتاح دار السعادة »(١/ ١٧٧) .

(٦) القَذَى : جمع قذاة ، وهي ما يقع في العين ، والشَّراب ، والماء من تُرابٍ ، وغير ذلك .

(٧) السَّجايا : الأخلاقُ والطِّباع ، مفردها سَجِيَّة .

(٨) « ديوان بشَّار بن بُرْد »(ص٤٥) .

(٩) لا تَلُمُّهُ : أي لا تَجْمَعُهُ إليكَ .

(١٠) الشَّعَث : اتِّساخ الرَّأس من الغُبار ، والمقصود على ما به من الزَّلاَّت والهفوات .

(١١) « أدب الدُّنيا والدِّين »(ص١٧٣) .

المُدارَة

المُداراة خُلُقٌ من أخلاق النُّبوَّة ، يُحْكِمُها الأذكياءُ ، ولا يتعدَّى حدودها الفضلاءُ وهي ترجعُ إلى حُسْنِ اللُّقاءِ، وطيب الكلام، والتَّودُّدِ للنَّاسِ، وتَجَنُّبِ ما يُشِيرُ بِسَخَطٍ من غير ثَلْمٍ لِلدِّينِ .

فعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّه استأذَنَ على النَّبيِّ ﷺ رجلٌ ، فقال : « ائذنوا له، بِئْسَ أخو العَشيرَةِ [1] » ، فلمَّا جَلَسَ تطلَّقَ له النَّبيُّ ﷺ في وَجْهِهِ ، وانبَسَطَ إليه ، فقلتُ : « يا رسولَ الله ، قُلْتَ ما قُلْتَ ، ثُمَّ أَلَنْتَ له القَوْلَ ؟!» فقال : « يا عائشَةُ ، إنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ تَرَكَهُ - **أو** وَدَعَهُ - النَّاسَ اتِّقَاءَ فُحْشِه » [2] .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « الواجبُ عَلَى العَاقِلِ أن يُداريَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجُلِ السَّابح في الماء الجاري ، ومَنْ ذَهَبَ إلى عِشْرَةِ النَّاسَ مِنْ حيثُ هو ، كَدَّرَ علَى نفسه عَيْشَهُ ، ولم تَصْفُ له مَوَدَّتُهُ ؛ لأنَّ وِدادَ النَّاسِ لا يُستَجْلَبُ إلاَّ بمساعدَتِهم على مَا هُمْ عليه ، إلاَّ أنْ يكونَ مأثمًا ، فإذا كانت حاله معصية ، فلا سمْعَ ولا طاعَةَ ، والبَشَرُ قد رُكِّبَ فيهم أهْواءٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وطبائعُ مُتباينةٌ ، فكما يَشُقُّ عليكَ تَرْكُ ما جُبِلْتَ عليه ، فكذلك يَشُقُّ على غيرك مُجانَبَةَ مثله ، فليس إلى صَفْوِ ودادهم سبيلٌ إلاَّ بمعاشرتهم من حيثُ هم ، والإغضاء عَنْ مُخالفتهم في الأوقاتِ » [3] .

وقال أيضًا : « مَن التمسَ رضى جميع النَّاسِ ، التمسَ ما لا يُدْرَكُ ، ولكن

---

(١) **العشيرة** : القبيلة ، أي بئسَ هذا الرجل منها .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٢) و (٦٠٥٤) و (٦١٣١) ، ومسلم (٢٥٩١) .

(٣) « روضة العقلاء » (ص٧١) .

يقصد العاقلُ رضَى مَنْ لا يجدْ من مُعاشَرَتِه بُدّاً ، وإنْ دَفَعَهُ الوقتُ إلى استحسانِ أشياءَ من العاداتِ كان يستقبحها ، واستقباحِ أشْياءَ كان يستحسنها ، ما لم يكن مأثمًا ؛ فإنَّ ذلك من المُداراة ، وما أكْثَرَ مَنْ دارى فلم يسلمْ ! ، فكيف تُوجدُ السَّلامةُ لَمَنْ لا يُدَارِي ؟! »[١] .

وقال الخطابي : أنْشَدَني ابنُ مالكٍ ، قال : أنشدني الدغوليُّ في سياسة العامَّة :

إذَا أمنَ الجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ... فَعرْضُكَ للجُهَّالِ غُنْمٌ من الغَنَمِ
وإنْ أنْتَ نَازيتَ السَّفيهَ إذَا نَزَا[٢] ... فَأنْتَ سَفيهٌ مثْلُهُ غَيْرُ ذي حلْمِ
ولا تتَعَرَّضْ للسَّفيهِ ودَارِه ... بمَنْزِلَةٍ بَيْنَ العَداوَةِ والسِّلْمِ
فَيَخْشَاكَ تَارَاتٍ ، ويَرْجُوكَ مَرَّةً ... وتَأخُذُ فيما بَيْنَ ذَلكَ بالحَزْمِ[٣]

وقال ابن نباتة السعدي :

وإذَا عَجَزْتَ عَنِ العَدُوِّ فَدَارِه ... وامْزِجْ له ؛ إنَّ المِزاجَ وِفَاقُ
فالنَّارُ بالماءِ الهَذي هو ضِدُّها ... تُعْطي النَّضَاجَ وطَبْعُها الإحْرَاقُ[٤]

ومن المُداراة إذا حدَّثَ محاورُك بكلامٍ غريبٍ ألاَّ تُبادرْ إلى تكذيبه ، وتفنيدِ قَوْلِه ، فهذا الصَّنيعُ لا يحسن أبدًا ، وليسَ من صفاتِ عُظَمَاءِ الرِّجالِ وأكابرهم ، فإنَّهم يتغاضونَ عن خطإِ مُحاورهم ، ويتعامون عن زلَّته ، وإذا كان الخطأُ كبيرًا ، فإنَّهم يُبيِّنُونَ له الخطأ ، ويُرشدونَهُ إلى الصَّوابِ بأجْمَلِ عبارةٍ ، وألْطَفِ إشارةٍ .

---

(١) المرجع السَّابق (ص ٧١-٧٢) .
(٢) نَزَا : وَثَبَ وأرَادَ الشَّرَّ .
(٣) « العزلة » (ص ٢٠٠) .
(٤) « جواهر الأدب » (ص ٧٨) .

قال عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما : « ثلاثةٌ من قُريش ، أَحْسَنُها أخلاقًا ، وأَصبَحُها وُجُوهًا ، وأشَدُّها حياءً ، إنْ حَدَّثوكَ لمْ يكْذِبوكَ ، وإنْ حدَّثْتَهُمْ بحقٍّ أو باطلٍ لم يُكذبوك : أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، وعثمانُ بن عفَّان ، وأبو عُبيدَةَ بن الجرَّاح »[1] .

وقال ابن حبان - رحمه الله - : « العاقلُ إذا دَفَعَهُ الوقتُ إلى صُحْبَة مَنْ لا يثقُ بصداقته ، أو صداقَة مَنْ يَثِقُ بأخوَّته ، فرأى من أحدهما زلَّةً ، فَرَفَضَهُ لزلَّته ، بَقِيَ وحيدًا لا يجدُ مَنْ يُعاشِر ، فريدًا لا يجدُ من يُخادن ، بلْ يُغضي على الأخ الصادق زلاَّته ، ولا يُناقش الصَّديق السَّيِّئ على عثراته ؛ لأنَّ المناقشَة تلزمه في صحيح أصل الوداد أكثرَ ممَّا تلزَمه في فرعه »[2] .

ومن جميل ما ينسب للإمام علي بن أبي طالب قوله :

أُغْمِضُ عَيني عن أُمورٍ كثيرةٍ ... وَإِنِّي عَلَى تَرْكِ الغُموضِ قَديرُ
وما مِنْ عَمَى أُغضي ولكنْ لرُبَّما ... تَعَامَى وَأَغْضَى المرءُ وهو بصيرُ
وَأَسْكتُ عَنْ أَشْيَاءَ لو شِئْتُ قلتُها ... ولَيْسَ عَلَيْنا في المقالِ أَميرُ
أُصَبِّرُ نفسي باجتهادي وطاقَتي ... وَإِنِّي بِأَخْلاقِ الجميعِ خبيرُ[3]

وقال منصور بن محمد الكريزي :

أُغْمِضُ عَيني عن صديقي كَأَنَّني ... لَدَيْه بما يأتي مِنَ القُبْحِ جَاهِلُ
وما بي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَليقتي ... تُطيقُ احتمالَ الكُرْهِ فيما أُحاوِلُ
مَتَى مَا يَرِبْني[4] مِفْصلٌ فقطَعْتُهُ ... بَقِيْتُ وما لي في نُهوضي مفاصِلُ

---

(١) « عيون الأخبار » (٢/ ٢٣) .
(٢) « روضة العقلاء (ص٧٣) .
(٣) « ديوان الإمام عليٍّ » (ص١٠٦) .
(٤) يقول : لو أنِّي كُلَّما رابني من صديقي أمرٌ يُسَبِّبُ فصلَ ما بيننا من مودَّةٍ ، لم أجدْ عند احتياجي إلى من ينهض بي عند عثرتي صديقًا .

ولكنْ أُدَارِيهِ وإنْ صَحَّ شَدَّني فَإنْ هو أعيا كان فيه تحامُلُ (١) (٢)

وقَدْ تقيمُ الحُجَّة الدَّامغَةَ على محاورك ، فَيُسَلِّمُ لك بعقله ، لكنَّه لم يُسلِّمْ لَكَ بعاطفَته ، فتلجأُ إلى الرِّفق والمداراة مهما طَالَ الزَّمَنُ ، والعَرَبُ تقول : «إذا لمْ تغلبْ فاخْلبْ» (٣) .

وإذا حاورْتَ ذا يد باطشَة ، أو ذا لسان عُرِفَ بنَهْشِ الأَعْراضِ ، فامْنَحْهُ جبينًا طَلْقًا ، وتجنَّبْ ما يكون له أثرٌ في نفسه عليْكَ .

قال عقال بن شبة : « كنتُ رديفَ أبي ، فَلَقِيَهُ جريرٌ على بَغْلٍ ، فحيَّاهُ أبي وألْطَفَهُ ، فلمَّا مضى قلْتُ لأبي : أبَعْدَ ما قال لنا ما قَالَ ؟! ، قال أبي : أفأُوَسِّعْ جُرْحي ؟! » (٤) .

وقال محمدُ بن الفضل : « قُلْتُ لأبي : لِمَ نَجْلسُ إلى فلانٍ ، وقدْ عرفتَ عداوَتِه ؟! ، قال : أخبي نارًا ، وأَقْدَحُ في وُدٍّ » (٥) .

وقال المهاجرُ بن عبد الله :

وَإنِّي لأُقْصي المرءَ مِنْ غَيْرِ بُغْضِه وأُدْني أَخَا البغْضَاءِ منِّي عَلَى عَمْدِ
لِيُحْدِثَ وُدّاً بَعْدَ بَغْضَاءَ ، أو أَرَى له مَصْرَعًا يُرْدي بِهِ اللهُ مَنْ يُرْدي (٦)

وقال آخرُ :

تَجَنَّبْ صديقَ السُّوءِ واصْرِمْ حِبالَهُ وإنْ لم تجدْ عنه مَحيصًا فَدَارِه
وأَحْبِبْ حبيبَ الصِّدْقِ واحْذَرْ مِراءَهُ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الوُدِّ ما لم تُمارِه (٧)

---

(١) يقول : إنَّ من الحكمة أن أُداري صديقي ، وأغضَّ عن زلَّاته ؛ حتَّى إذا صحَّ وُدُّهُ قويتُ به ، وأعطاني شدَّةً في أمري ، وإنْ ضعف وعجز وجدتُ فيه بعض ما يتحامل به من قوةٍ انتفعُ بها .

(٢) روضة العقلاء » (ص٧٣) .

(٣) « الأمثال » (ص١٥٦) .

(٤، ٥ ، ٦) « عيون الأخبار » (٣/٢٢) .

(٧) « روضة العقلاء » (ص٧٢) .

ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكر عن ابن شوذب قال :

« كانتْ لرجلٍ جاريةٌ ، فوطئها سراً ، فقال لأهله : إنَّ مريمَ كانت تغتَسلُ في هذه اللَّيلة ؛ فاغتسلوا ، فاغتَسَلَ هو واغْتَسَلَ أَهْلُهُ » ، قال ابن شَوْذَب : «وكانت مريمُ تغتسلُ في كُلِّ ليلةٍ » [1] .

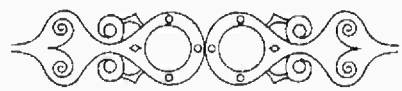

(١) رواه ابن حبَّان في « روضة العقلاء » (ص٧٣) .

الابتعاد عن المداهنة

بعد أن أوضحنا شيئًا من المُداراة ، يَحسُنُ بنا أنْ نوضِّحَ ما هي المداهنة ؛ لأنَّ الأشياء تتميَّزُ بضدِّها .

المداهنة : هي إظهار الرِّضى بالمنكر ، فهي بلادةٌ في النَّفْسِ ، واستكانَةٌ للهوى .

وأصْلُ المُداهنَة من الدِّهان : وهو الَّذي يظهر علي الشَّيءِ ، ويسترُ باطنه .

فالمُداهنُ يَلْقَى الفاسقُ المُعْلِن بِفسقه ، فيؤلِّفه ، ولا يُنكرُ عليه ولو بقلبه ، أو يرى منكرًا ، ويقدرُ على دفعه ، ولَمْ يدفعه حفظًا لجانب مرتكبه ، أو جانب غيره ، ويترك بعض ما هو عليه من أمرِ الدِّين ممَّا لا يرضاهُ النَّاسُ مُصانَعَةً لهم ، فهذه المُداهَنَة هي الَّتي رغب مُشركوا مكَّة في وجودها عند النَّبيِّ ﷺ ، فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : ٩] .

ولقدْ حَذَّرَ الرَّسولُ ﷺ من سوءِ عاقِبَة المداهن ، وعدم الأخذ على يده ؛ فعن النُّعمان بن بشيرٍ رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مثلُ القائمِ (١) في حُدود الله ، والواقع فيها مثلُ قوم استهموا (٢) سفينة ، فصار بعضهم في أسفلها ، وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذي في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها ، فتأذَّوا به ، فأخذ فأسًا ، فجعل ينقر (٣) أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : ما لك ؟ قال : تأذَّيتم بي ، ولا بدَّ لي من الماء ، فإنْ أخذوا على يديه (٤) أنجوه ونجَّوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه ، وأهلكوا أنفسهم » (٥) .

مَثَلُ المُداهنُ : أي صفته .

الاستهام : الاقتراع .

ينقر : يخرق .

أخذوا على يديه : منعوه وزجروه .

(٥) أخرجه الترمذي .

وقد فصل العلامة ابن بطال - رحمه الله - الفرق بين المداراة والمداهنة . فقال :

«المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي : خفضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ ، ولينُ الكلمة ، وتركُ الإغلاظِ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسبابِ الأُلْفَة ، وظَنَّ بَعْضهم أنَّ المداراة هي المداهنة فغلط ؛ لأنَّ المداراة مندوبٌ إليها ، والمداهنَة محرَّمة .

والفرقُ أنَّ المداهنة من الدُّهان : وهو الذي يظْهرُ على الشَّيْءِ ، ويستر باطنه ، وفسَّرها العلماءُ بأنَّها : مُعاشَرَةُ الفاسِقِ ، وإظْهارُ الرِّضَى بما هو فيه من غيرِ إنكارٍ عليه .

والمداراة : هي الرِّفْق بالجَاهِلِ في التَّعليم ، وبالفاسِقِ في النَّهي عن فعله ، وتركُ الإغلاظ عليه حيثُ لا يظهر ما هو فيه ، والإنكارُ عليه بلُطفِ القَوْلِ والفعلِ ، ولا سيَّما إذا احتيجَ إلى تألُّفه ، ونحو ذلك »[1] .

والمداهنُ يَعْجَلُ إلى كُلِّ قَولٍ يَشْتَهيه محاوره بغَضِّ النَّظَرِ عن قناعَتِه من عدمها ، ولشوقي قصيدة لطيفة عنوانها « نديمُ الباذنجان » قال فيها :

كان لسُلطانٍ نديمٌ[2] واف ... يُعيدُ مَا قالَ بلا اخْتلاف

وَقَدْ يزيدُ في الثَّنا عليه ... إذَا رأى شَيْئًا حلاَّ لديه

وكان مَوْلاهُ يرَى ويعلمُ ... ويسمعُ التَّمليقَ[3] لكن يكتمُ

فجلسا يومًا على الخوان[4] ... وجِيءَ في الأكْلِ بباذنْجان

فأكَلَ السُّلْطانُ منه ما أكَلْ ... فقال : هذا في المذاق كالعَسَلْ

قال النَّديمُ : صَدَقَ السُّلْطان ... لا يَسْتَوي شَهْدٌ وباذنْجان

هَذَا الَّذي غَنَّى به الرَّئيسُ[5] ... وقال فيه الشِّعْرَ جالينوسُ

---

(١) « فتح الباري » (١٠ / ٥٢٨) .

(٢) النَّديم : الجليس على الشَّراب .

(٣) التَّمليق : النِّفاق .

(٤) الخِوان - بضم الخاء أو بكسرها - ما يُؤْكَلُ عليه الطَّعام (المنضدة) .

(٥) الرَّئيس : يعني ابن سينا .

يُـذْهِـبُ ألْـفَ لَـمَّـة وَعِـلَّـهْ ... ويُبْـرِدُ الـصَّـدْرَ ويَشْـفي الـغلَّهْ

قـال [١] : ولكـن عندَهُ مَـرَارَهْ ... ومـا حَـمِـدْتُ مَـرَّةً آثارهْ

قـال : نعـم ، مُـرٌّ وهذا عَـيْـبُـهُ ... مُـذْ كُنْتُ - يا مـولايَ - لا أُحِبُّـهُ

هَذَا الَّـذي مـات بِـهِ بُقْـرَاط ... وسُمَّ فـي الكأسِ به سُـقْـراط

فـالتَـفَتَ السُّلْـطَانُ فـيـمَنْ حَـوْلَهُ ... وقـال : كـيفَ تجـدون قـوله ؟

قـال الـنَّديمُ : يا مَـلِيكَ الـنَّاس ... عُـذْرًا فـمـا في فـعلَـتي مِنْ باس

جـعـلتُ كي أُنـادِمَ السُّلْطـانا ... ولـم أُنادم قَـطُّ باذنجـانـا [٢]

وخـلاصـة القـول فى الفـرق بين المداراة والمداهنَة أنَّ المداراة : هي التَّنازُلِ عن شيءٍ من حقوقك لمصلَحَةٍ متحقِّقَةٍ .

والمُداهنَة : هي التَّنازُلِ عن شـيءٍ من الدِّينِ ، فـهي - إذًا - من صـفـاتِ المُنافقين .

فـحـريٌّ بالمحـاورِ أن يسلُـكَ طَريقَ المداراة ، وينأى [٣] بنفـسِـهِ عن طريقِ المداهَنَةِ .

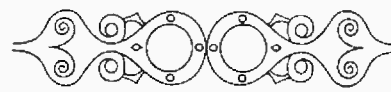

(١) يعني السُّلْطان .

(٢) « الشَّوقيَّات » (٤/ ١٢١) .

(٣) ينأى : يبْعُدُ .

الابتعادُ عن الخَجَلِ (١)

الخَجَلُ : هو الشُّعور بالحَرَجِ والاضْطراب عند مُواجَهَة النَّاسِ عُمومًا ، وعلى هذا فهو يختَلِف عن الحياء الذي هو : شعورٌ بالانقباضِ والحَرَجِ عن فِعْلِ ما يشينُ ، أو ذِكْرِه ، وعلى هذا فالحياءُ محمودٌ ، والخَجَلُ مذمومٌ .

من مظاهر الخجلِ :

{ ١ } توتُّرِ الأعصابِ عِنْدَ لِقاءِ الآخرين .

{ ٢ } التَّلَعْثُمُ في الكلامِ ، وعَدَمِ القُدْرَةِ على الحوارِ معهم .

{ ٣ } اضْطراب الجوارح ، واحمرار الوَجْهِ .

{ ٤ } عدم الثِّقَة بالنَّفْسِ في مُباشَرَةِ كثيرٍ من الأعمالِ بحضورِ الآخرين .

علاجُ مَرَضِ الخَجَلِ :

{ ١ } اندمجْ اجتماعيًّا ضِمْنَ مجموعَةٍ من زملائكَ ، أو جيرانك ، أو أقاربك ، وشاركهم في حوارهم .

{ ٢ } ألْقِ بَعْضَ النُّكَتِ المُضحكة على الآخرين ، وشاركْهُم في الضَّحِكِ .

{ ٣ } حاولْ أنْ تتعرَّف علَى مَنْ تلقاهم في بَعْضِ المناسبات ، مثل : الطَّائرَة ، أو الحافلة ، أو بعض الأماكن العامَّة ، وحاورهُمْ وتعرَّفْ على أفْكارِهِم .

{ ٤ } عِنْدَ عَرْضِ أفْكارِكَ حاولْ أنْ تُقْنِعَ نَفْسكَ بأنَّكَ تتحدَّث لوحدك ، وليسَ أمَامَكَ أحدٌ عند الحديث .

{ ٥ } حافِظْ علَى صلاةِ الجماعةِ في المسجِدِ ، وتَولِّ الإمامةَ ، وبخاصَّةٍ في

---

(١) استفدتُ هذا المبحث من كتاب « حتَّى لا تكونَ كلاًّ » .

الصَّلاةِ الجهريَّة عندما تُتاح لك فرصةٌ لذلك .

٦ ألْقِ خاطِرَةً بَعْدَ الصَّلاةِ علَى المُصَلِّين .

٧ احرصْ على أنْ تُشارك الآخرين في الحوارِ عندما يكونُ موضوعُ الحوارِ في الجوانبِ التي تعلمْ تَفوُّقَكَ فيها .

٨ إذا أَحْسَسْتَ بتوتُّرِ أعصابك ، فحاولْ أنْ تسترخيَ قليلاً ثُمَّ تعود للحوارِ .

٩ قبْلَ مُواجهتك للآخرين خَطِّطْ لحوارك وأفعالك ، وتوقَّعْ ردَّ فعل محاورك وَعَدِّلْ خُطَطَكَ على ضَـوْءِ ذلك ، ثُمَّ تَمَرَّنْ على ما ستـقولُهُ ، وحاولْ أن تُطَبِّقَهُ أكْـثَرَ منْ مَرَّة ، ثُمَّ نَفِّذْ ما خَطَّطت له مبـاشرةً ، وبصدْقٍ وأدَبٍ مع الآخرين ، وإذا تكرَّر هذا منك عدَّة مرَّاتٍ ، فسيزولُ الخَجَل بإذْنِ الله .

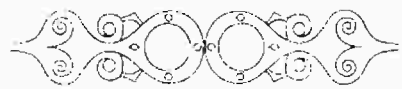

الخاتمة

الحمدُ لله الَّذي وفَّقني لإنجازِ هذا البَحْثُ ، فلولا فضْلُ الله ورحمتُهُ ما كنتُ لأهتدي إليه ، وأسأله - سبحانه وتعالى - قَبُولَهُ ، وجَعله نافعًا مباركًا مفيدًا ، وقد عرفنا من خلال هذا البَحْث أنَّ الحوار أصْلٌ مهمٌّ من أُصولِ دعوتنا ، فمن خلالِ الحوارِ النَّاجحِ يُمكننا أنْ نفهم النَّاس ، ونحسن عشرتهم ، ونتحبَّب إليهم، ونأخُذُ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم .

ومع أنَّ كُلَّ إنسانٍ عزيزٌ بالفطْرَةِ ، كريمُ النَّفْسِ بتكريمِ الله له ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ { الإسراء : ٧٠ } ، فهو يميلُ إلى مَنْ يحْترم له شخصيَّته التي أكرَمَها اللهُ ، فاحترامنا لشخصيَّة أيِّ إنسانٍ هو مفتاح الدُّخولِ إلى قلبِه ، ولمَّا كانَ الدُّخول إلى ذلك القلْب يعتمدُ اعتمادًا كبيرًا على حُسْنِ المحاورة ؛ أحْبَبْتُ أن أكْتُبَ ما حرَّرْته هنا على حسب ما فهمتُهُ بفَهْمي القاصر ، وعلمي المحدود ، عَسَى أن ينتفعَ به إخواني من طلبَةِ العلم وغيرهم ، بحيثُ يأخذونَ منه الثِّمار ، ويُلقونَ الحَطَبَ في النَّارِ ، ويلتفتون إلى ما فيه من الصَّوابِ ، ولو كانَ قائلُهُ حقيرًا ، ألا تَرَى أنَّ ملكة سبأ في حال كونها تسجُدُ للشَّمْسِ من دونِ الله هي وقومها ، لَمَّا قالت كلامًا حقًّا صدَّقَها اللهُ فيه ، ولم يكنْ كفرها مانعًا من تصديقها في الحقِّ الذي قالَتْهُ ، وذلك في قولها فيما حكي اللهُ عنها : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ ؛ فقد قال اللهُ تعالى مصدِّقًا لها : ﴿ وكذلك يفعلون (٣٤) ﴾ { النَّمل : ٣٤ } .

ولله درُّ الشاعرِ القائل :

لا تَحْقِرَنَّ الرَّأْيَ وهُوَ موافقٌ ... حُكْمَ الصَّواب إذا ما أتَى مِنْ نَاقِصِ

فالدُّرُّ - وهو أعَزُّ شَيءٍ يُقْتَنَى - ... ما حَطَّ قِيمَتَهُ هَوَانُ الغَائِصِ

ولا نُبَرِّئُ أنفُسَنَا من خَلَلٍ ولا رَيْبٍ ، ولا نكتُبُ بِشَرْطِ البراءَة من كُلِّ عيبٍ بل نعترف بالقُصورِ ، ونسْألُ اللهَ العَفْوَ عَمَّا جَرَى به القلمُ من خطإٍ غير مقصودٍ، كيف لا وقدْ قالوا : « الإنسانُ في فُسْحَةٍ من عقلِهِ ، وفي سلامةٍ من أفواهِ جنسِهِ، ما لم يضعْ كتابًا ، ولم يقُلْ شِعْرًا » .

وقالوا : « مَنْ صَنَّفَ كتابًا ، فقدْ استشرف للمدحِ والذَّمِّ ، فإنْ أحسَنَ فقدْ استهدَفَ من الحَسَدِ والغَيْبَة ، وإنْ أَسَاءَ فقدْ تَعَرَّضَ للقذفِ والشَّتْمِ » .

ولا أزْعُمُ خُلُوَّ هذاالجهد المتواضع من خَلَلٍ ونقصٍ وتقصيرٍ ، بل أقول : «إنْ يَكُ صوابًا فمن الله ، وإنْ يكُ خطأً فمنِّي ومن الشَّيطان ، والله عزَّ وجلَّ ورسولُهُ بريئان » (١) .

ورَحِمَ اللهُ امرأً وجَدَ خَلَلاً أو خطأً فنبَّهني ، وأختمُ هذا البحث بما ختم به الإمامُ محمَّد بن إبراهيم الوزير كتابه العظيم « العواصِمُ والقواصم » ، وهو قوله :

جَمَعْتُ كتابي راجيًا لقبولِهِ ... منَ الله ، فالمرْجُوُّ منه قَرِيبُ
رَجَوْتُ بنَصْرِ المصطفَى وحديثِهِ ... تُكَفِّرُ لي يومَ الحِسابِ ذُنُوبُ
وَمَنْ يَتَشَفَّعْ بالحَبيبِ مُحَمَّدٍ (٢) ... إلَى الله في أمرٍ ، فليسَ يَخيبُ
فيا حافظي عِلْمَ الحَديثِ لي اشْفَعوا ... إلَى الله فالرَّبُّ الكريمُ يُجيبُ
لَعَلَّ كتابي أنْ يكونَ مُذَكِّرًا ... لكم بالدُّعاء للعَبْدِ حينَ يَغيبُ
ولاسيَّما بَعْدَ المماتِ عَسَى بِهِ ... يُبَلُّ غَليلٌ (٣) أو يُكَفَّرُ حُوبُ (٤)

---

(١) هذا قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أثناءَ جوابه علَى استفتاء . انظر « مسند الإمام أحمد » رقم (٤٢٧٦) (٦/ ١٣٧) و صحَّح إسنادَهُ أحمد شاكر ، انظر تعليقَهُ علي المسند (٦/ ١٣٧) .

(٢) هذا فيه نظرٌ ، إذا قَصَدَ الإمام ابن الوزير - رحمه الله - التَّوسُّلَ إلَى الله بجاه نبيِّه ، فهو توسُّل بدعيٌ ، لا نوافقه عليه .

(٣) الغليل : شدَّة العَطَش .

(٤) حُوب : ذنب .

ولا تَغـــفلوني إنِّـي بليتُ بـودِّكم ... وإنْ بَلِـيَتْ منِّي الـعظامُ تَـشـــيبُ
ومـهمـا رأيتمْ في كـتـابي قُصُـورَهُ ... فسـتْرًا وغَـفْرًا ، فالقُـصُورُ مـعيبُ
ولكـن عُـــذْري واضحٌ وهو أنَّـني ... من الخَـلْقِ أُخْطِئُ تـارَةً وأُصـــيبُ
وقَدْ يَنْثَني الصَّمْصامُ [1] وهو مجرَّدٌ ... وقَـدْ يُكْسَـرُ المرَّانُ وهو صَـليبُ
ولكـنَّني أرجـــو إذا حَـلَّ دَارَكُمْ ... حَلَى منه ، ورد بالأُجـاج مشـوبُ
يكون أخًـا دونكـم ، فَـإذا انتَـهَى ... إلَيكم تـلَقَّى طِيْـبَـتـكُمْ فـيـطيبُ

وأخيرًا أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ يَغْفرَ لي زلاَّتي وخطـيئاتي ، وجُرْأتي على ما لا أحسن ولا أطيقه ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم ، وصلَّى اللهُ على عبـدِهِ ورسولِهِ نبيِّنا مـحمَّدٍ ، وعـلى آلِهِ وأصحابِهِ ، وأتبـاعِهِ إلى يومِ الدِّين ، وبارك وسلّم .

وآخرُ دَعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين .

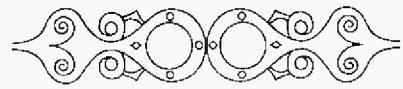

(١) الصَّمْصَام : السَّيف .

المصادر والمراجع

{ ١ } « القرآن الكريم » .

{ ٢ } « الإبانة في أصول الديانة » لابن بطّة .

{ ٣ } « أبناء الغمر » لابن حجر العسقلانيّ .

{ ٤ } « إحياء علوم الدين » لأبي حامد الغزاليّ .

{ ٥ } « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية » .

{ ٦ } « أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة » لمحمّد بن إبراهيم الحمد .

{ ٧ } « الأخلاق والسِّير » لابن حزم الأندلسيّ .

{ ٨ } « آداب البحث والمناظرة » لمحمّد الأمين الشنقيطيّ .

{ ٩ } « أدب الدنيا والدين » لأبي الحسن الماورديّ .

{ ١٠ } « أدب الطلب ومنتهى الأرب » للشوكانيّ .

{ ١١ } « أدب العشرة وذكر الصحبة والأخوة » لبدر الدين الغزي .

{ ١٢ } « الأدب الكبير والأدب الصغير » لابن المُقفّع .

{ ١٣ } « أدب المجالس » لابن عبد البرّ .

{ ١٤ } « الأذكار » للنوويّ .

{ ١٥ } « استخراج الجدل من القرآن الكريم » لابن الحنبليّ .

{ ١٦ } « إرشاد الفحول » للشوكانيّ .

{ ١٧ } « إصلاح المجتمع » للبيمانيّ .

{ ١٨ } « أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنّة » لمحمد بن إبراهيم العثمان.

{ ١٩ } « أصول الفقه » لابن مفلح المقدسيّ .

{ ٢٠ } « أضواء البيان » لمحمّد الأمين الشنقيطيّ .

{ ٢١ } « أطواق الذهب » للزمخشريّ .

{ ٢٢ } « أعلام الموقعين عن ربّ العالمين » لابن قيّم الجوزيّة .

{ ٢٣ } « الاعتصام » للشَّاطبيِّ .

{ ٢٤ } « الإعلام » لخيِّر الدِّين الزَّركليِّ .

{ ٢٥ } « الإعلان بالتَّوبيخ لمن ذمَّ التَّاريخ » للسَّخاويِّ .

{ ٢٦ } « إغاثة اللَّهفان » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٢٧ } « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لابن تيمية .

{ ٢٨ } « أقوال مأثورة » لمحمَّد لطفي الصَّبَّاغ .

{ ٢٩ } « الأمالي » .

{ ٣٠ } « الأمثال » لأبي عُبَيْد .

{ ٣١ } « الأمر بالاتِّباع » للسيوطيِّ .

{ ٣٢ } « إيثار الحقِّ على الخَلْق » لابن الوزير .

{ ٣٣ } « بدائع الفوائد » لابن قَيِّم الجوزيَّة .

{ ٣٤ } « البداية والنهاية » لابن كثير .

{ ٣٥ } « البدر الطَّالع » للشوكانيِّ .

{ ٣٦ } « بغية الإيضاح » للصَّعيديِّ .

{ ٣٧ } « بهجة المجالس وأنس المجالس » لابن عبد البرِّ .

{ ٣٨ } « بهجة المجالس » للأثريِّ .

{ ٣٩ } « البيان والتَّبيين » للجاحظ .

{ ٤٠ } « تاريخ بغداد » للخطيب البغداديِّ .

{ ٤١ } « تاريخ الجَدَلْ » لأبي زهرة .

{ ٤٢ } « تاريخ دمشق » لابن عساكر .

{ ٤٣ } « ذكرة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم» لجارِ الدِّين ابن جماعة.

{ ٤٤ } « تربية الأطفال في الإسلام » لمحمَّد النَّاصِر ، وخولة درويش .

{ ٤٥ } « ترتيب الموضوعات » للذَّهبيِّ .

{ ٤٦ } « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» لابن الوزير .

{ ٤٧ } « تسلية أهل المصائب » لمحمَّد المنبجيِّ .

{ ٤٨ } « التَّعالم وأثره على الفكْر والكتاب » لبكر بن عبد الله أبو زيدٍ .

{ ٤٩ } « التَّعريفات » للجرجانيِّ .

{ ٥٠ } « تفسير القرآن العظيم » لابن كثيرٍ .

{ ٥١ } « التَّفسير القيِّم » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٥٢ } « التَّقريب لحدِّ المنطق » لعليِّ بن حَزْمٍ الأندلسيِّ .

{ ٥٣ } « تلخيص الحبير » لابن حجَرٍ العسقلانيِّ .

{ ٥٤ } « التَّمهيد » لابن عبد البرِّ .

{ ٥٥ } « تهذيب الأخلاق » للجاحظ .

{ ٥٦ } « تهذيب ابن عساكر » .

{ ٥٧ } « تهذيب الأسماء واللغات » للنَّوويِّ .

{ ٥٨ } « تهذيب الكمال » للمزيِّ .

{ ٥٩ } « التَّوابين » لابن قدامة المقدسيِّ .

{ ٦٠ } « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان » لابن سَعْديٍّ .

{ ٦١ } « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البرِّ .

{ ٦٢ } « جامع العلوم والحكم » لابن رجبٍ الحنبليِّ .

{ ٦٣ } « الجامع الصَّحيح ممَّا ليس في الصَّحيحين » لمقبل بن هادي الوادعيِّ .

{ ٦٤ } « جوامع الأدب والأخلاق » للقاسميِّ .

{ ٦٥ } « جواهر الأدب » لأحمد الهاشميِّ .

{ ٦٦ } « حتَّى لا تكون كلاًّ » لعوض بن محمَّدٍ القرنيِّ .

{ ٦٧ } « الحُجَّة في بيان المحجَّة » لأبي القاسم الأصبهانيِّ .

{ ٦٨ } « الحسبة في الإسلام » لابن تيميَّة .

{ ٦٩ } « الحكمة في الدَّعوة إلى الله » للقحطانيِّ .

{ ٧٠ } « الحلم » لابن أبي الدُّنيا .

{ ٧١ } « الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسُّنَّة » ليحيى بن محمَّدٍ رمزي.

{ ٧٢ } « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهانيِّ .

{ ٧٣ } « حياة الحيوان » لكمال الدِّين الدميري .

{ ٧٤ } « حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة » لمحمَّد بهجة البيطار .

{ ٧٥ } « درءُ تعارض العَقْلِ والنَّقْلِ » لابن تيميَّة .

{ ٧٦ } « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيِّ .

{ ٧٧ } « ديوان أبي العتاهية » .

{ ٧٨ } « ديوان ابن الأمير الصَّنعانيِّ » .

{ ٧٩ } « ديوان ابن هانئ » .

{ ٨٠ } « ديوان الإمام عليٍّ » .

{ ٨١ } « ديوان بشَّار بن بُرْد » .

{ ٨٢ } « ديوان عبد الكريم العماد » مخطوط .

{ ٨٣ } « ديوان الشَّافعيِّ » .

{ ٨٤ } « ديوان المتنبِّي » .

{ ٨٥ } « الذَّريعة إلَى مكارم الشَّريعة » للرَّاغب الأصفهانيِّ .

{ ٨٦ } « الذَّيل على طبقات الحنابلة » .

{ ٨٧ } « الرَّدُّ على المخالف » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

{ ٨٨ } « رسائل الإصلاح » لمحمَّد الخضر حسين .

{ ٨٩ } « الرَّوْضُ الباسم » لابن الوزير .

{ ٩٠ } « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » لابن حِبَّان البُسْتيِّ .

{ ٩١ } « رياض الصَّالحين » للنَّوويِّ .

{ ٩٢ } « الرِّياض الناظرة » لابن سَعْديٍّ .

{ ٩٣ } « زاد المسير في علم التَّفسير » لابن الجوزيِّ .

{ ٩٤ } « زاد المعاد في هَدْي خير العباد » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٩٥ } « زهرة الأدب » للحصري .

{ ٩٦ } « سراج الملوك » لأبي بكرٍ الطَّرطوشيِّ .

{ ٩٧ } « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة » للألبانيِّ .

{ ٩٨ } « السُّنَن » لأبي داود سُليمان بن الأشعث السِّجِسْتانيِّ الأزْديِّ .

{ ٩٩ } « السُّنَن » للتِّرمذيِّ .

{ ١٠٠ } « السُّنَن » لابن ماجَةَ محمَّد بن يزيد القزوينيِّ .

{ ١٠١ } « السُّنَن » للدَّارَاقطْنيِّ .

{ ١٠٢ } « السُّنَن » للبيهقيِّ .

{ ١٠٣ } « السُّنَن » للدَّارميِّ .

{ ١٠٤ } « سير أعلام النُّبلاء » للذَّهبيِّ .

{ ١٠٥ } « سيرة ابن هشام » .

{ ١٠٦ } « شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهَب » لابن العماد الحنبليِّ .

{ ١٠٧ } « شرح أُصول الاعتقاد » .

{ ١٠٨ } « شرح السُّنَّة » لأبي محمَّد البربهاري .

{ ١٠٩ } « شرح السُّنَّة » للبغويِّ .

{ ١١٠ } « شرح العقيدة الطَّحاويَّة » لابن أبي العز الحنَفيِّ .

{ ١١١ } « شرح حديث » ما ذئبان جائعان « لابن رجب الحنبليِّ .

{ ١١٢ } « شرح الكواكب المنير ».

{ ١١٣ } « شرح النَّوويِّ على صحيح مسلمٍ » .

{ ١١٤ } « الشَّريعة » لأبي بكر الآجريِّ .

{ ١١٥ } « الشَّوقيَّات » لأحمد شوقي .

{ ١١٦ } « الصَّاحبي » لابن فارس .

{ ١١٧ } « الصَّحَّاح » لإسماعيل بن حماد الجوهريِّ .

{ ١١٨ } « صحيح ابن حبَّان »

{ ١١٩ } صحيح البخاريِّ .
{ ١٢٠ } « صحيح الجامع الصَّغير وزيادته » للألبانيُّ .
{ ١٢١ } « صحيح سُنن التِّرمذيِّ » للألباني .
{ ١٢٢ } « صحيح مسلم » .
{ ١٢٣ } « صفة الصَّفوة » لابن الجوزيِّ .
{ ١٢٤ } «صفحات من صبر العلماء على الشَّدائد والتَّحصيل» لعبد الفتاح أبي غدَّة .
{ ١٢٥ } « طريق الهجرتين » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ١٢٦ } « عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ١٢٧ } « العزلة » للخطَّابيِّ .
{ ١٢٨ } « عقيدة السَّلَف أصحاب الحديث » .
{ ١٢٩ } « العقيدة السَّلفيَّة من كلام ربِّ البريَّة » للجديع .
{ ١٣٠ } « عمدة القاري شرح صحيح البخاريِّ » لبد الدِّين العيني .
{ ١٣١ } « العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونَقْده » لابن رشيق القيروانيِّ .
{ ١٣٢ } « العواصم والقواصم » لابن الوزير .
{ ١٣٣ } « عين الأدب والسِّياسة » لعليِّ بن هذيل .
{ ١٣٤ } « عيون الأثر » .
{ ١٣٥ } « عيون الأخبار » لابن قتيبة الدينوري .
{ ١٣٦ } « فتاوى ابن تيميَّة » جمع ابن القاسم .
{ ١٣٧ } « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » لابن حجر العسقلاني .
{ ١٣٨ } « فتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد » لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .
{ ١٣٩ } « الفاضل في صفة الأدب الكامل » لمحمَّد بن أحمد الوشاء .
{ ١٤٠ } « الفرقان » لابن تيميَّة .
{ ١٤١ } « الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير » لابن رجب الحنبليِّ .
{ ١٤٢ } « فقه السِّيرة » للغزالي بتحقيق الألباني .

[١٤٣] « الفقيه والمتفقِّه » للخطيب البغداديِّ .
[١٤٤] « الفنون » لابن عقيل الحنْبليِّ .
[١٤٥] « في أُصول الحوار » النَّدوة العالميَّة للشَّباب الإسلامي .
[١٤٦] « فيض القدير شرح الجامع الصَّغير » للمنَّاوي .
[١٤٧] « قانون التَّأويل » لأبي بكر ابن العربي .
[١٤٨] « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » للعزِّ بن عبد السَّلام .
[١٤٩] « القواعد الأساسية للُّغَة العربيَّة » للهاشميِّ .
[١٥٠] « قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردِّ الشُّبُهات » للرُّحَيْلي .
[١٥١] « الكافية في الجدل » لإمام الحرمين الجويني .
[١٥٢] « الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز » لأبي حفص المعروف بالملاَّ .
[١٥٣] « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكريّ .
[١٥٤] «كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون» لشهاب الدِّين النَّجفي المرعشي.
[١٥٥] « كيف تكسب الأصدقاء وتُؤثِّر في النَّاس ؟ » لديل كارنيجي .
[١٥٦] « لسان العرب » لابن منظور .
[١٥٧] « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبليِّ .
[١٥٨] « لمحات في فنِّ الحوار » لبدري .
[١٥٩] « المجْتَبَى »
[١٦٠] مجلَّة الأسرة العدد (٧٠) .
[١٦١] مجلَّة الغذاء العدد (٢٧) .
[١٦٢] « مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد » للهيثمي .
[١٦٣] « المحاسن والمساوئ » لإبراهيم البيهقيِّ .
[١٦٤] « المحنة » للمقدسيِّ .
[١٦٥] « مختصر صحيح مسلم » للألباني .

{ ١٦٦ } « مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة » لابن قيِّم الجوزيَّة.

{ ١٦٧ } « مدارج السَّالكين » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٦٨ } « مُراعاة أحوال المخاطبين » لفضل إلهي ظهير .

{ ١٦٩ } « المستدرك على الصَّحيحين في الحديث » للحاكم .

{ ١٧٠ } « المسند » لأحمد بن حَنْبَلٍ الشَّيبانيِّ .

{ ١٧١ } « المصنَّف » لعبد الرزَّاق الصنعاني .

{ ١٧٢ } « المصنف » لابن أبي شيبة .

{ ١٧٣ } « المعجم الكبير » للطَّبرانيِّ .

{ ١٧٤ } « مُعْجَمْ المناهي اللَّفظيَّة » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

{ ١٧٥ } « المغازي » لابن إسحاق .

{ ١٧٦ } « المغني » لابن قُدامة .

{ ١٧٧ } « مفتاح دار السَّعادة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٧٨ } « مناقب أحمد » لابن الجوزيِّ .

{ ١٧٩ } « مناقب الشَّافعيِّ » للرَّازيِّ .

{ ١٨٠ } « مناقب الشَّافعي » للبيهقيِّ .

{ ١٨١ } « مناهج الجدل في القرآن الكريم » لزاهر الألمعي .

{ ١٨٢ } « المنتقى من مكارم الأخلاق » للخرائطي ، انتقاء أبي طاهرٍ السَّلفيِّ .

{ ١٨٣ } « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » لابن تيمية .

{ ١٨٤ } « المنهاج بترتيب الحجاج » لأبي الوليد الباجي .

{ ١٨٥ } « الموافقات في أُصول الأحكام » للشاطبيِّ .

{ ١٨٦ } « نقض المنطق » لابن تيميَّة .

{ ١٨٧ } « النُّونيَّة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٨٨ } « النُّونيَّة » للقحطانيِّ .

{ ١٨٩ } « هجر المبتدع » لبكر بن عبد الله أبو زيد .